



مذاهب و شخصیات

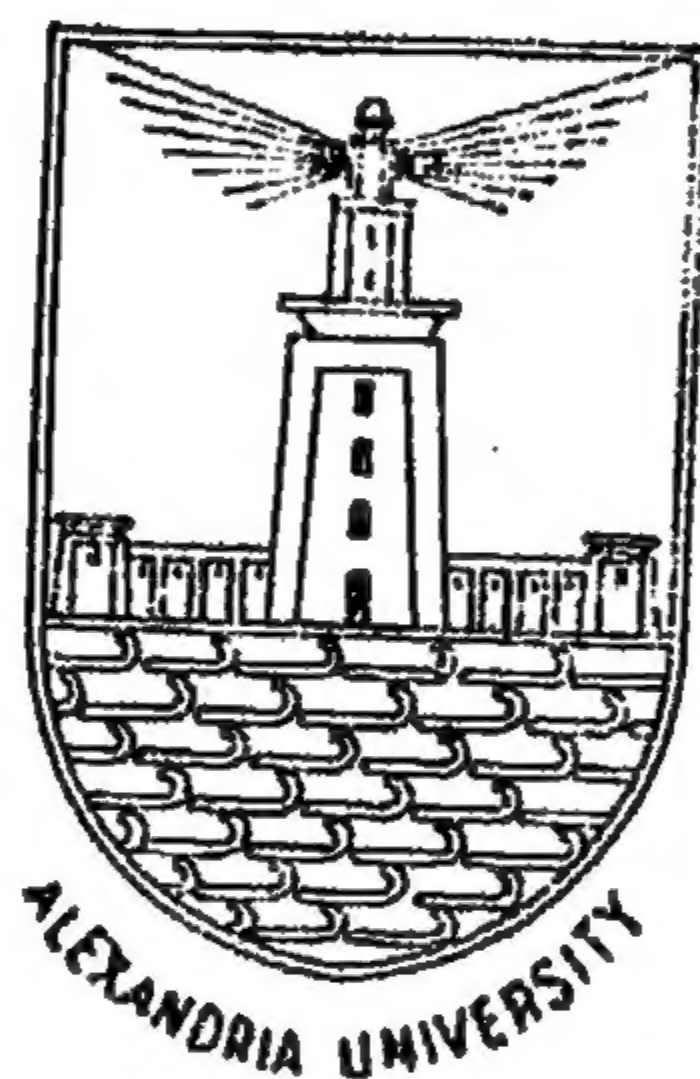
مہدی الصّومالی

بطل الثورة ضد الاستعمار

بقلم
دکتر محمد المعتمد سید



72552



THE LIBRARY

عزاهب وشخصيات

مهدى الصُّومال

بطل الثورة ضد الاستعمار

بقلم
دكتور محمد المعظم سيد

تقديم الكتاب

لا يخلو تاريخ أمة من ظهور بطل مجاهد تبعثه العناية الإلهية في ظروف عصيبة ليدفع عنهم عدوا معتديا أو ليهديهم من بعد زيغ أو ضلال . وسواء وفق البطل في أداء رسالته أو تغلبت عناصر الشر على عناصر الخير ، فإن التاريخ يسجل سيرته فيتناقلها قومه جيلا بعد جيل ، يستخرجون منها العظات والدروس ، ويستمدون منها قوة روحية تجدد أملهم في التخلص من محنة قد تكون الممت بهم ، وتحضهم ضد الاغراء الدنيوى الذى كثيرا ما يستهوئ ضعاف النفوس ، فيباع الوطن برخيص الثمن ، وتفتح الثغرات للأعداء ينفذون منها لقاء ذهب لامع أو سلطان زائل .

وتاريخ امتنا العربية حافل بأسماء الأبطال والمجاهدين ، منهم من قيض الله له النصر فدفع عن بلاده غوائل الطامعين ، أو استخلص لقومه حريتهم وكرامتهم من عدو غاشم أو حاكم ظالم . ومنهم من استشهد بعد نضال غير متكافئ فقدم أغلى ما يستطيع أن يقدمه انسان في سبيل وطنه وعقيدته .

وفى هذا الكتاب الذى يسرنى أن أقدمه للقراء العرب مثل رائع من أمثلة الجهاد ، لم يشن عزم صاحبه قلة نفره أو انحراف بعضهم أو الخيانة السافرة للبعض الآخر . بل لم يرهبه أنه كان ينازل امبراطوريات ضخمة لديها من الامكانيات المادية والبشرية أضعاف ما لديه . ان قصة كفاح « مهدي الصومال » الملا محمد بن عبد الله المحسن ضد البريطانيين والفرنسيين والايطاليين والأحباش لهى قصة مثيرة منعشة لفؤاد كل عربى . فقد ظل يناضل القوى المعبأة لاختضاعه سنين طوال ، لم يعبأ بتهديد ، ولم تغره الهدايا والوعود . فما أروع رده على رسالة القائد البريطانى التى كانت تنضح وقاحة وغرورا . والتى جاء فيها : -

« سننسفك نسفا اذا لم ترجع عن غيك » واذا لم تخمد ثورتك

الجنونية .. واعلم أن حكومة صاحبة الجلالة الملكة عظيمة جدا ولا
يستطيع مجنون مثلك أن ينال منها شيئا .. »
فكان رد بطلنا عليه :

« الى الجنرال كوفل ، قائد الشيطان .. قد اطلعت على رسالتك
وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة وأغراض حكومتك الوضيعة ..
واعلم أن قواتكم التى تفاخرون بها لاتساوى لدى شيئا .. ومهما تكن
الظروف لن أستسلم ولن أكون للشرك عبدا » .

قال تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » . وقد
شاء الله جلت عظمته أن يحطم غرور المعتدين ويرد كيدهم ، فأيد عبده
الصالح الذى استطاع أن يلحق بأعدائه هزيمة ماحقة قتل فيها القائد
البريطانى صاحب تلك الرسالة السفينة ، وضاعت فيها هيبة «حكومة
صاحبة الجلالة الملكة العظيمة جدا » .

انها حقا لعبرة لكل من طغى واستعلى ..
ومما يجعل لهذا الكتاب أهمية لدى القارىء المصرى أن مصر
لعبت دورا هاما فى تاريخ الصومال الحديث .. فقد شملت الإدارة
المصرية بعض أجزاء الصومال فى القرن التاسع عشر ، فعملت على نشر
التعليم فى البلاد وأنشأت المستشفيات ونشطت التجارة فعم الرخاء
وظهرت بوادر نهضة فى الصومال لم يشهدها شعبه من أمد طويل .
فاما أرغم الاستعمار المصرىين على الانسحاب ، رحل الغاصب الاوروبى
محل الأخ المصرى كان وعى الصوماليين قد اكتمل ، ولم يخف عليهم الفرق
الشاسع بين الإدارة المصرية التى كانت تأخذ بيدهم وترعى مصالحهم
وبين بطش المستعمر وأسيالييه الاستغلالية وأنانيته التى لا حد لها .
لذلك كانت فترة الإدارة المصرية - على قصرها - من العوامل الفعالة فى
اذكاء الشعور الوطنى فى الصومال وتصميم الشعب الصومالى على عدم
الخضوع للأجنبى .

وكان جهاد بطلنا محمد بن عبد الله الحسن انعكاسا طبيعيا لهذا
التصميم . فلم يرض لبلاده أن تستسلم بخنوع للغاصبين ، بل قاتلهم
« بنية صالحة ، وإيمان قوى » وعزيمة لا تعرف الملل « . لقد استشهد
البطل فى ساحة القتال ، ولكن الكفاح الذى غرس بذوره لم يلبث أن آتى
ثماره بعد أن خارت قوى الاستعمار فى الحرب العالمية الثانية ولم تستطع
الصمود أمام تيار التحرر الجارف الذى ساد العالم فى الستينات
الحديثة .

واذا كانت مصر قد أسهمت فى تقدم الصومال فى القرن التاسع عشر
وفى خلق وعى قومى بين افراد شعبه ، فقد ارتبطت مصر أيضا بقصة

استقلاله . لم يكن من السهل على الدول الاستعمارية أن تشاهد امبراطوريتها وهي تتفكك ، فتستقل الشعوب التي كانت تسيطر عليها الواحد تلو الآخر . فلجأت تلك الدول الى التسوية والمماثلة في الاعتراف بحق هذه الشعوب في الاستقلال . عسى أن تتبدل الظروف فتستمر في سيطرتها وفرض على الصومال أن يظل عشر سنوات تحت وصاية الأمم المتحدة قبل أن يحظى باستقلاله . وعينت إيطاليا وصية على البلاد في تلك الفترة . وكان اختيار إيطاليا بالذات بعيدا عن الذوق السليم ، لأنها كانت فيما مضى تحتل الجزء الأكبر من الوطن الصومالي ، ولم تكن صفحتها في حكم البلاد ناصعة البياض . وشكلت هيئة الأمم المتحدة لجنة وصاية لتراقب تنفيذ إيطاليا لشروط هذه الوصاية الدولية ، وكان من بين أعضاء هذه اللجنة مواطن مصري أنس اليه الصوماليون لما رأوا فيه من صلابة في الحق وترصد لالاعيب الاستعمار . لم يكن الشهيد كمال الدين صلاح بالشخص الذي يغمض عينيه عن المؤامرات التي تحاك ضد مصير الشعب الذي بادلته المودة والحب . لم يرق ذلك لقوى الشر التي ادركت أن في وجوده خطرا على خططهم العدوانية . فكان أن اغتالته يد الغدر حتى يخلو الجو للمتآمرين . ولكن دماء كمال الدين صلاح لم تذهب سدى . فقد انتصر الشعب الصومالي لمبادئه بعد استشهادة ومالبث أن نال استقلاله برغم كيد الكائدين .

ان مشكلات الصومال لم تنته باستقلاله . فقد اقتطع الاستعمار مساحات متسعة من الوطن الصومالي الكبير مازال سكانها يرزحون تحت الحكم الأجنبي . ولكننا نؤمن بحتمية التاريخ . والزمن كفيل بإعادة الحقوق الى أصحابها طالما اتفقت كلمتهم وصحت عزيمتهم على استعادتها . ولاشك أن الصومال سيلقى كل عطف وتأييد في تحقيق آماله من جمهوريتنا العربية المتحدة ، لما يربطنا وشعب الصومال من أواصر المودة والأخوة ، ولما نرجوه له من عزة وخير عميم .

وفي الختام . لايسعني الا أن اهنيء صديقي الدكتور محمد المعتصم على اخراج هذا الكتاب القيم الذي استمتعت بقراءته والذي لا أشك أنه سيثاج صدر كل قارئ عربي .

عز الدين فريد

والله ولي التوفيق .

مقدمة

ربيع قرن من الكفاح المتصل والقتال المستمر عاشها هذا البطل
يصارع قوى الاستعمار الجبارة ..

سنوات متلاحقة من النضال المرير قضاهها مدافعا عن مبادئه في
تحرير بلاده والقضاء على أعدائها .. فاما النصر التام .. أو الاستشهاد
في قضية الحق والتحرير ..

عاش الملا محمد بن عبد الله الحسن ليتزعم ثورة بلاده - الصومال -
ضد السيطرة والتحكم الاجنبى وليكمل في ذلك السلسلة التى تصدر
بطولتها أحمد عرابى في مصر ومحمد أحمد المهدي في السودان والتى
هدفت الى اجلاء القوات الاجنبية المستعمرة عن الاراضى العربية التى
قفزت اليها لتحكمها فى ظروف ضعف سياسية .. مرت بها هذه البلاد
اتذاك ..

ظهر الملا فى هذه الفترة نفسها . تلك التى برزت فيها زعامة هؤلاء
القادة .. وكانت دول الاستعمار العاتية تمكن لنفوذها فى بلادهم ..
هذه بريطانيا وتلك فرنسا .. ثم ايطاليا اما هو .. فكان نصيبه من
الجهاد أوفر .. لقد كان عليه أن يحارب قوى أربع دول عتيقة بعضها
عريق فى استعمار الشعوب والهيمنة عليها .. والبعض الآخر حديث
العهد بهذه السياسة ويريد أن يثبت جدارته فى هذا الميدان القبيح فى
أقصر وقت .. كان عليه أن يحارب انجلترا وفرنسا وايطاليا والحبشة
فى آن واحد ليخلص حقوق مواطنيه من برائنها ..

شب الملا محمد بن عبد الله الحسن عن الطوق ليجد الصومال
العربى فريسة لاطماع هذه الدول كل يريد أن يستخلصها لنفسه ..
ويستأثر بخيراتها دون غريمة .. فكيف حدث ذلك ؟

جاء هذا التحول السريع فى سياسة التسابق الاستعماري الاوربي
على امتلاك أجزاء من افريقيا منذ عام ١٨٨٠ .. ففى هذه السنة بدأت

الدول الأوروبية تدخل مبدا امتلاك أجزاء من هذه القارة في نطاق سياستها .. فأخذت هذه الدول في بسط سلطانها على أجزاء في افريقيا .. فاستعمرت بلجيكا الكنفو .. واحتلت فرنسا تونس .. ودخلت انجلترا مصر .. وهكذا .

وانتقل نشاط هذه الدول وغيرها الى مناطق غربى البحر الأحمر وساحل افريقيا الشرقى .. ففي هذه الجهات تركزت العمليات التوسعية الجديدة في المناطق التى كانت تديرها مصر في ساحل الصومال .. وهرر .. وأقاليم شرق السودان بعد أن انحسرت عنها هذه الإدارة نتيجة للاحتلال .. الانجليزى لمصر .. ولقد أسرع كل من بريطانيا وإيطاليا وفرنسا الى محاولة اقتطاع أجزاء من هذه الجهات .. وكانت أول آثار هذا الاتجاه الجديد في السياسة الاستعمارية الأوروبية أن تشابكت مصالح هذه البلاد في منطقة واحدة تعد من أهم المناطق الاستراتيجية في افريقيا .. وبدأت أهداف كل من البلاد الثلاثة تتعرض للخطر الانهيار نتيجة لهذا الاحتكاك ..

ووسط هذه الدوامة الهائلة من الصراع .. قاد الملا محمد بن عبدالله الحسن مواطنيه في ثورة وطنية ضد قوى الاستعمار .. وكان كفاحا مريرا .. استمر لفترة طويلة ..

وحركة مهدي الصومال الثورية .. صادفت كما صادفت غيرها من الحركات التحررية الكثير من التشويه والتلفيق .. لقد رأينا كيف صور الاستعمار لنا حركة عرابى التحررية الوطنية .. وكيف رسم لنا شخصية المهدي والثورة المهدية .. لقد أظهرهما في غير صورتهم الحقيقية .. ليقلل من أهميتهما ويمحى صور البطولة والهانة المفروض وجودها من العقول .. وهذا بالضبط ما فعله الاستعمار مع مهدي الصومال وثورته لقد أظهره في شخصية الرجل المتهوس وحركته الثورية بالهمجية والطيش .. وسجل مؤرخوه وكتابه في كتبهم هذه الوقائع الكاذبة ليجعلوا منها حقيقة تسيء الى هذا البطل المكافح وتضيع معالم كفاحه .. ولم تر سيرته وثورته النور الا على لسان شهود العيان وقليل من الكتاب المنصفين الذين أوردوا بعض الحقائق عنه .. أما الكتاب الوطنيون فقد فرض عليهم الاستعمار رقابة شديدة لحصار انتاجهم ..

والاستعمار في هذا العمل يكرر نفسه .. في الصومال بالذات .. ففي القرن السادس عشر قام البطل الصومالى أحمد بن ابراهيم الشهير « بجرانى » بحربه المشهورة ضد الأحباش والبرتغاليين وألف في هذه الأحداث - العالم العربى ابن عرب فقيه - كتابه المشهور « فتوح البلدان » .. وقد وقف الاستعمار الحبشى لهذا الكتاب بقوة وهيمانه

.. ففرض عقوبة الاعدام على من يمتلك هذا الكتاب ويثبت أنه يعرف القراءة والكتابة .. والسجن المؤبد لمن يثبت جهله بهما .. وبهذا اختفى هذا السفر الجليل الذي يروى تاريخ فترة زاهرة لكفاح العرب ضد قوى الاستعمار .. ولم يبق منه الا نسخ تعد على أصابع اليد الواحدة ..

وبرغم قرب أحداث ثورة الملا التي تكاد تكون معاصرة .. الا أنها ظلت تائهة بين الحقيقة والتضليل وكل المحاولات التي بذلت لإخراج تاريخ صحيح لثورة الصومال ضد الاستعمار في أواخر القرن التاسع عشر وتاريخ قائدها .. محاولات اجتهدية جانب بعضها التوفيق .. وسارت تهدي الغير الى الحقيقة التي سوف تظهر في يوم من الأيام ناصعة مشرفة .. يفخر بها العرب عامة .. وعرب الصومال خاصة .. ولتكمل هذه السيرة .. سيرة عرابي وثورته في مصر ضد الاستعمار البريطاني .. والمهدي وثورته في السودان ضد هذه القوة التي أرادت فرض سيطرتها على وادي النيل .. ولتكون سيرة هؤلاء الأبطال وغيرهم أسطورة المستقبل التي تروى للأجيال المقبلة ..

وفي حياة زعيم الصومال المكافح أكثر من اسم وأكثر من صفة .. فمحمد بن عبد الله حسن ، اسمه الحقيقي ..

وابن عبدالله حسن ، اسم الشهره ..

ومهدي الصومال ، الاسم الذي عرف به كزعيم وقائد .. والملا ، هو الاسم الذي عرف به في الدوائر الأجنبية ..

وسوف نذكر هذه الأسماء جميعا في مجال الحديث عن صاحب هذه السيرة .. فهي تعبر في النهاية عن شيء واحد .. هو شخصية بطل الكفاح في القطر الصومالي الشقيق .

الفصل الأول مهمى الصومال فى أرض العرقية

الملا محمد بن عبدالله حسن سليل أسرة عربية صميمة من تلك التى استوطنت افريقيا .. منذ عرفت العروبة طريقها الى هذه الجهات .. ففى بلاد الأوجادين .. أحد المقاطعات العربية الاسلامية الهامة فى شرقى افريقيا .. ولد بطل هذه السيرة لأب أوجادينى وأم تنحدر الى أسرة عربية عريقة من تلك التى استقرت على الحدود الحبشية الصومالية ..

ونشأ الملا فى أرض الكفاح التى شهدت أمجاد العرب والعروبة منذ القرن الثانى عشر الميلادى وازدهرت فى أحسن صورها أيام السلطان الفاتح أحمد جرانى فى القرن السادس عشر ، حيث دار الصراع على أشده بين العناصر العربية التى هاجرت من الجزيرة العربية الى أرض افريقيا ، وانتشرت على سواحلها الشرقية وفى داخلها وبين الأحباش الذين كانوا يسيطرون على معظم هذه الانحاء من ناحية، وقوى الاستعمار الأوروبى التى بدأت تسعى لفرض حكمها على هذه المواقع من ناحية أخرى ، وكان هذا الصراع رهيبا يتمثل فى حب البقاء والهروب من الفناء ..

ويحسن بنا قبل أن نتناول سيرة الملا عبد الله حسن وكفاحه من أجل استقلال بلاده .. أن نسترجع تاريخ العروبة فى هذه البلاد التى شهدت كفاحه ونضاله كما شهدت كفاح ونضال أسلاف له من قبل ..

تعددت رحلات العرب وهجراتهم من الجزيرة العربية الى الساحل الافريقى المقابل لها .. وكان لقرب الشقة بين ساحل الصومال والجزيرة العربية أثره الكبير فى تسهيل أمر هذه الهجرات .. فاندفعت جماعات عربية فى دفعات تشق طريقها الى وطنها الجديد فى افريقيا .. وعلى مرور الزمن قويت شوكتهم فتمكنوا من تكوين امارات عربية فى الأماكن الساحلية .. ثم ما لبثوا أن توغلوا فى انداخل حيث تقيم قبائل الصومال وكونوا هناك امارة اسلامية عربية كبيرة .. عرفت بامارة

هرر أو العدال .. أما الامارات الساحلية فكانت امارتى مقديشو
والزيلع وأشرف على هذه الامارات جميعها العرب الذين تأقلموا في
البيئة الصومالية .



واستطاع العرب النازحون الى بلاد الصومال ان يعربوا قبائل
هذه البلاد ، وسجّوا حتى مطلع القرن السادس عشر نجاحا كبيرا في
هذا المضمار .. الأمر الذى أدى الى خلق عصبية لهم في انداخل ومن
صميم ابناء هذه البلاد .. والفضل في هذا النجاح يرجع الى الأسلوب
الذى اتبعه العرب المهاجرون مع القبائل الصومالية كان من القوة
والإقناع بحيث استطاعوا أن يجعلوا لدعوتهم أنصياراً ومؤيدين في
الساحل وفي الداخل على حد سواء .. ومن المعروف أن النشاط
المألوف بالنسبة لهذه البلاد كان قاصراً على الساحل فقط .. فى ذلك
الحين .. لدرجة أنه لم يحدث أى توغل أوروبى في الداخل على الإطلاق .

وكان لانتشار العروبة والاسلام في هذه المنطقة الافريقية وعلى
هذه الصورة الكبيرة .. ثم تأسيس امارات يسيطر عليها العرب سيطرة
كاملة .. كان لهذا اثره السيئ في نفوس حكام الحبشة المسيحيين
ودول أوربا المسيحية التى كان لها نشاطها على الساحل الافريقى ..
فبدءوا ينظرون الى النشاط العربى نظرة خوف ، واعتبروا الامارات
الاسلامية مزاحما خطيرا لنفوذهم وقد يؤدى في النهاية الى استئثار
العرب بالمنطقة كلها ، هذا في الوقت الذى ازداد فيه أمراء العرب
ورعاياهم حرصا على التمسك بكل شبر حصلوا عليه وعملوا على تدعيم
مكاسبهم بشتى الوسائل .



وقد ساعد هذا الجو على اشاعة التوتر والقلق بين العرب
ومنافسيهم وأدى في النهاية الى قيام حروب متعددة بين ملوك الأحباش
وأمراء العرب في بلاد الصومال ، كل يحاول المحافظة على سلطانه
وكيانه وقد اتخذت هذه الحروب صورة الجدية ابتداء من القرن الثالث
عشر .. وقد كون أمراء العرب في الساحل وفي الداخل جبهة موحدة
لمواجهة هذا الخطر .. وكان لهذا التكتل اثره في الانتصارات التى
أحرزها العرب .. الأمر الذى أدى الى اتساع رقعة حكمهم .

وهكذا خلق هذا الجو نوعا من التوتر بين الفريقين أدى فى
النهاية الى قيام حروب متعددة بين ملوك الأحباش وأمراء الامارات
الاسلامية . كل يحاول أن يحافظ على كيانه وسلطانه .

واخذت هذه الحروب صورة واضحة في عهد مؤسس الأسرة

السلمانية في الحبشة يكون املاك (١٢٧٠ - ١٢٨٥ م) وكذلك في عهد
عمد صهيون (١٣١٤ - ١٣٤٢) وقد سقط في هذه الحروب عدد من
امراء المسلمين شهداء في سبيل المحافظة على استقلال اماراتهم ..
التي كاد يقضى عليها ملوك الحبشة قضاء تاما .



وفي اواسط القرن الرابع عشر الميلادي .. بدأ امراء المسلمين
في بلاد العدال بدءوا قتالا عنيفيا مجيدا ضد الدولة الحبشية بعضهم
فيه المسلمون المنتشرون على طوال الساحل بالمال والسلاح .. ويساندتهم
في الداخل بعض ولاة ملك الحبشة في اقليم امانو وهديه وفاتيچارو
وداورو .. وكانوا على ولاء واخاء مع ملوك العدال بعد ان استقلت
اماراتهم نسبيا عن سلطة ملوك الاحباش .. كذلك دخل الى جانب ملوك
العدال في هذه الحروب .. حكام المقاطعات في الحدود الشمالية
الشرقية للحبشة الذين كانوا يحكمون ولايات صغيرة مستقلة تماما عن
الحبشة .

هذه الجبهة المتحدة المكونة من امراء العدال وحلفائهم اشتركت
في القتال ضد الحبشة بصورة منتظمة اكسبتهم النصر تلو النصر ..
فاستمر اتساع دولة العدال يسير جنبا الى جنب مع الحروب المظفرة
التي قاد لواءها امراء هذه الدولة الاسلامية .. واخذوا يقطعون بفضل
انتصاراتهم جزءا كبيرا من حدود الحبشة الشمالية والشرقية ..
وانتهت هذه المرحلة من الحروب بأن تمكن السلطان ابو بكر أحد خلفاء
السلطان عمر الأصم من أن يؤسس دولة كبيرة .. كان نواتها دولة
العدال القديمة .. واستبدل العاصمة زيلع بعاصمة أخرى هي هرر -
وكان ذلك في عام ١٥٢١ ميلادية .



وبانتقال عاصمة دولة العدال الى مدينة هرر عام ١٥٢١ .. بدأ
عهد جديد من التطور في سياسة الدولة الخارجية وأهدافها التوسعية
بالنسبة للحبشة .. وكان أول عمل اتخذ في هذا السبيل هو توحيد
الدويلات الصغيرة الواقعة على الحدود الشرقية للحبشة .. وسكانها خليط
من الأحباش ومهاجري العرب من المسلمين .. ومن هذا المزيج استطاع
امراء العدال أن يكونوا جبهة قوية متحدة لتكون على أهبة الاستعداد للمرحلة
المقبلة في معاركهم ضد الأحباش .. هذه المرحلة التي قاد لواءها السلطان
أحمد بن ابراهيم سلطان هرر الشهير بجراني أي « الأشول » .. وقد قام
هذا السلطان بعدة حملات منظمة على بلاد الحبشة حتى كادت تدين له
كلها بالطاعة .. ويمتاز القرن السادس عشر الذي قامت فيه هذه الحروب

بالحماس البالغ الذى دفع المسلمين الى الزحف الى الداخل .. بعد أن كانت مسارح الحروب السابقة لا تتجاوز المنطقة الواقعة على حدود الحبشة .

وتمتاز الحروب التى قامت فى القرن السادس عشر بين المسلمين والأحباش بأنها لم تعد حربا محلية كما كانت من قبل .. بل دخل عليها عنصر جديد بدأ يوجه اهتمامه الشديد بهذه المنطقة من افريقيا وربط مصالحه ببقائه فيها أو سيطرته عليها .. هذا العنصر الجديد كان ممثلا فى كل من تركيا والبرتغال الذى بدأ التصارع بينهما على هذه المنطقة .. كل يبغى السيطرة منفردا عليها للظفر بموقعها التجارى الممتاز ..

ففى الوقت الذى كان فيه البرتغاليون بقيادة هنرى الملاح حاكم سبتا يحاولون تأسيس علاقات تجارية مع مدن اقريقيا الساحلية حتى يتمكنوا من القضاء على منافسة المسلمين حكام مصر .. كان الأتراك قد استقروا فى آسيا الصغرى واحتلوا الشرق الأدنى وسيطروا على البحر الأحمر وزاحموا أساطيل البنادقة فيه ثم أطلوا على الخليج الفارسى ولم يبق أمامهم الا البحر الأحمر .. وكان هدف الأتراك كما كان هدف البرتغاليين - من السيطرة على البحر الأحمر أن يهيمنوا على المراكز التجارية فيه .. كما كان هدف الأتراك قطع طريق التجارة على البرتغاليين وشل حركتهم .. ومن ثم يسهل عليهم احتكار التجارة الهندية .



بدأ الأتراك فى تنفيذ خططهم فى البحر الأحمر .. فبعد أن هزم قنصوه الغورى آخر سلاطين المماليك فى مصر .. أرسل السلطان سليم قائده سنان باشا فى حملة الى بلاد العرب فأخضع حكامها وزعماءها وعين حكاما أتراكا فى كل المدن .. وتم للأتراك بعد ذلك احتلال كل الموانئ الواقعة على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر وعقب ذلك استولوا على زيلع .. وأقاموا بها كذلك جمركا وكونوا بها أسطولا من عدة قطع صغيرة لمهاجمة سفن التجار وكان ذلك عام ١٥١٩ .

ومن هذا الجزء من الساحل الاقريقى .. بدأ الأتراك يتطلعون الى المنطقة كلها .. وأيقنوا أنهم اذا تمكنوا من اقامة دولة تابعة لهم فى الحبشة .. تسيطر على ساحل البحر الأحمر الغربى .. فان سيادتهم على طريق التجارة الى الهند تكون استكملت أسبابها .

وفى الوقت الذى كان يفكر فيه الأتراك فى ايجاد حليف لهم فى هذه المنطقة .. كان أمراء العدال يسعون جاهدين لكسب حلفاء يعينونهم فى حروبهم ضد الأحباش وخاصة بعد هزيمتهم الكبيرة أمام ملك الحبشة لبناء

دبنجل عام ١٥٠٨ م والتي أحرق فيها معظم مدن بلاد العدال وقتل من مسلميها ١٢٠٠٠ نسمة ٠٠ وغنم من ممتلكاتها أشياء كثيرة ٠٠ فلم يكن مستغربا أن يتم التجاوب بين الأتراك وأمراء العدال بمنتهى اليسر ٠٠ وأخذ الطرفان يوثقان علاقتهما ببعضهما البعض ٠

وعلى هذا النحو قام حلف جديد قوامه الأتراك المسلمون الساعون إلى إيجاد مناطق نفوذ لهم في هذه البقعة من افريقيا ٠٠ والأمراء المسلمون في بلاد العدال الذين يرغبون القضاء على نفوذ الأحباش والسيطرة على هذه المنطقة بأكملها ٠٠ وتم الاتفاق بين الفريقين الذين وحدث بينهم العقيدة الدينية والمصلحة المشتركة ٠٠ ورأى الأتراك في السلطان أحمد بن إبراهيم أمير هرر ٠٠ القوة المحركة التي تستطيع أن تقود الجبهة الجديدة ٠٠ فأيدته وناصرته بالمال والرجال والسلاح ٠٠ واتخذت من تدينه وتقواه وسيلة لظهاره أمام مسلمي تلك الجهات ٠٠ قائدا دينيا يجمع كلمة المسلمين ٠٠ ويسير بهم إلى النصر ٠

وصلت إلى مسامع الأحباش أنباء التحالف الجديد بين الأتراك والمسلمين وحكام بلاد العدال وهرر فأصيبوا بالذعر البالغ ٠٠ وأسرعت ملكة الحبشة ايليني (١٥٢٢ م) في البحث عن حليف قوى يقف إلى جانبها في وجه عدو جديد وصل إلى مرتبة كبيرة من الرقي الحربي والعسكري لا يمكنها الصمود أمامه ففي الوقت الذي بدأ فيه السلاح الجديد المكون من المدافع والبنادق وسائر المعدات الحربية الحديثة يصل إلى أيدي أمراء العدال ٠٠ كان الأحباش لا يزالون يعتمدون اعتمادا كليا على القوس والرمح والسهم ٠٠ ورأت ملكة الحبشة أن تتحالف مع قوة خارجية كبيرة كما فعل أمراء العدال ٠٠ فتطلعت إلى البرتغاليين ولا سيما بعد أن سمعت بأنباء انتصاراتهم في المحيط الهندي ، ولهذا أرسلت إلى عما نويل ملك البرتغال برسالة تعرض فيها عليه مبدأ التحالف ضد المسلمين ٠

وكان البرتغاليون يفكرون جديا في الاستحواذ على مناطق نفوذ في هذا الجزء في افريقيا بعد أن أدركوا أهميته عقب استقرارهم في الهند ٠٠ ولهذا كانت دعوة ملكة الحبشة للملك عما نويل لها وقع طيب في نفوس البرتغاليين الذين لم يكونوا أقل اهتماما من الأتراك بهذه المنطقة ، وأسرعوا يمدون أيديهم بالمساعدة لملكة الحبشة بصورة جدية ٠

وقد أدرك الأتراك خطر التحالف الحبشي البرتغالي الجديد ٠٠ فعملوا على وجه السرعة لتنفيذ اتفاقهم مع ملوك العدال لتحطيم الحلف المعادي الجديد والوقوف في سبيل أغراضه ٠٠ فأمدوهم بالأسلحة النارية الحديثة ووقفوا من ورائهم مؤازرين بالمال والرجال ٠

بدأ السلطان أحمد بن إبراهيم «جرانى» حروبه ضد الحبشة بزحف شامل على قلب بلاد أعدائه . . يساعده فى ذلك الباشا التركى حاكم زبيد الذى عهد اليه بتزويده بالأسلحة والمدافع . . ويؤازره شريف مكة الذى كان يمدّه بالجنود العرب .

وقعت الغزوة الأولى لجرانى عام ١٥٢٨ من هرر نحو الجنوب الشرقى وكان هدفها السوق الحبشية . دوارو واقليم بالى المتصل بالسوق المذكورة ثم اقليم فاتيجار . . واقليم فاتيجار اليوم هو بلاد الايتوجالا ، ثم واصل زحفه الى شوا وغندار . . وملك الحبشة يفر هاربا من بلد الى أخرى وجرانى يطارده ويقتل من الأحباش أعدادا ضخمة ويحرق الكنائس ويخرب المدن . . وفى العام التالى وقعت بالى أشهر مدن الحبشة فى أيدي جرانى ودخل الكثير من أبناء هذه المدينة الاسلام .

وبعد أن تم الاستيلاء على كل من دوارو وبالى . . اتسعت منطقة هرر نحو الجنوب الغربى اتساعا كبيرا ثم تحول جرانى الى شمال الحبشة عام ١٥٣٠ ونفذ الى اقليم تيجرا . . وفرض الأتاوة على أكسوم وحفلت السنوات التالية لذلك حتى عام ١٥٤٢ بحروب جرانى فى أواسط الحبشة . . وحروبه فى نفس الوقت ضد البرتغاليين تحت قيادة كريستوفر داجاما . . وكان هدف جرانى فى سنين حربه الأخيرة الاحتفاظ بما استولى عليه من أملاك اتسعت حتى بلغت شرقى الحبشة وجنوبها برمته .

وقد أثر سكان بعض الأقاليم الحبشية التى فتحها جرانى دفع الجزية والبقاء على دينهم . . فى حين انضم الى جيشه الظافر عدد كبير من زعماء الأحباش مع أتباعهم ودخلوا الاسلام . . وقد استغل زعماء المسيحيين الذين دخلوا الاسلام على يد السلطان جرانى نفوذهم الشخصى فى تحريض جيوشهم على الدخول فى الاسلام ، كما اغتنم كثير من المسلمين الذين كانوا قد أقاموا فى الحبشة قبل هذه الغزوة فرصة انتصار هذا الملك المسلم فساعدوه باخلاص على نشر الدعوة الاسلامية .

وفى أواخر أيام جرانى تحول الحظ ضده ، ففي الوقت الذى اشتدت فيه وطأة هجمات البرتغاليين عليه فى عام ١٥٤٢ بدأت العلاقة تسوء بينه وبين حلفائه الأتراك ، ورفض قبول الامدادات التى كانت ترسل اليه على شكل أسلحة ورجال . ويبدو أنه كان متخوفا من نتيجة علاقاته مع الأتراك ، فقد ظن أنه بمجرد انتهائه من حرب الأحباش فإنه سيرغم على خوض غمار حرب أخرى ضد حلفائه ، ولهذا رأى أن ينتهز فرصة انتصاراته ليطيح بصداقته للأتراك ، ففقد بذلك ركنا هاما كان يعينه فى حربه ، وبانتهائه تآذنت دولته بالزوال .

وكانت مهمة خلفاء السلطان جرانى هى المحافظة على حدود الامارات العربية من الأعداء المتربصين بها الدوائر .. وحمايتهم من غاراتهم المتوالية .. وتركز كفاحهم فى المناطق الداخلية وجزء من الساحل الذى لم يفرض عليه الأتراك حمايتهم اذ تمكن الأتراك أيام تحالفهم مع السلطان جرانى من وضع أيديهم على موانى مصوع وسواكن وبربره ووصلوا الى مدينة دباروه وتوغلوا فى المدن الساحلية فى الشرق .

وقد نجح خلفاء جرانى فى الاحتفاظ بسلطان العرب على الامارات الاسلامية طوال ثلاثة قرون أى حتى القرن التاسع عشر ، وكانت هذه القرون الثلاثة تمثل كفاحا بين قوى متفككة تتمثل فى الامارات العربية ومنافسين أقوياء يتمثلون فى الأقباش ومؤيديهم ، ومع ذلك استطاع العرب الاحتفاظ بسلطانهم حتى هذا التاريخ .



وفى منتصف القرن التاسع عشر .. شهدت منطقة شرقي افريقيا .. كما شهدت مناطق أخرى فى هذه القارة صراعا من نوع جديد كان أبطاله دول أوربا الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وألمانيا والبرتغال .. سعى كل منها الى خلق مناطق نفوذ له تمده بالمواد الأولية التى تحتاج اليها النهضة الصناعية فى أوربا نتيجة للاكتشافات الحديثة التى اجتاحت هذه القارة .. وفى الميدان الافريقى كان الصراع الذى لا يعرف المهادنة .. وكانت الاتفاقيات السرية بين كل دولة وأخرى على توزيع مناطق النفوذ .

وفى منطقة شرقي افريقيا وساحل البحر الاحمر الغربى .. احتدم النزاع بين الدول الأوروبية على نحو سنفضله فيما بعد .. وباتت مناطق الصومال والسودان الشرقي فى مهب العاصفة .. ورأت مصر أن تدعم مركزها فى سواحل السودان وتحمى جيران لها تجمعها بهم أوامر اللغة والدين والعروبة فى مناطق الصومال فمدت يدها اليهم بناء على رغبات أكيدة أبدوها فمدت الادارة المصرية الصومال وهرر لتحضى هذه الجهات من جشع الاستعمار المتربص بها الدوائر .

ونجحت مصر فيما هدفت اليه .. وفى الوقت الذى كانت مناطق عدة من القارة الافريقية يبتلعها الاستعمار فريسة سهلة .. كانت المناطق التى امتدت اليها الادارة المصرية تنعم برخاء تام وحياة كريمة استمرت فترة من الزمن .. الا أن القدر لم يدم لها هذا الذى سعدت به وذلك حين ابتليت مصر بالاستعمار البريطانى لأراضيها عام ١٨٨٢ .. ولم تعد تملك من أمر نفسها شيئا وتحت ظروف ضعف سياسية اضطرت الى اخلاء ما كانت ادارتها تدير مقاليدته فى السودان والصومال وهرر وأجزاء أخرى

من افريقيا وبدأت الدول الأوروبية الاستعمارية تسعى للظفر بهذه المناطق العامرة بالاصلاحات الحافلة بالتقدم .



وثمة حقيقة هامة يجب تأكيدها في هذا المجال . . . وهي أن الإدارة المصرية حينما امتدت الى بعض أجزاء من بلاد الصومال لم تحمل في طياتها أى لون من ألوان السيطرة أو الاستعمار كما صورت ذلك الدوائر الأوروبية الاستعمارية . . . ولم تكن ترمى الى الهيمنة وتوسيع مناطق النفوذ والاستيلاء على بلاد وفيرة الخيرات والمواد الأولية للاستفادة من هذه الموارد . . . كما كان الغرض من وراء التوسع الأوربي : بل كان الأمر غير ذلك تماما ، والوثائق الرسمية المحفوظة في أرشيف عابدين ولندن وروما وغيرها تثبت أن امتداد الادارة المصرية الى هذه الجهات كانت بناء على رغبة أهلها الذين أفرعهم التوغل الاستعماري الأوربي ورأوا في إدارة مصر الشقيقة خير ما يحميهم من هذا الأخطبوط الذي يتهددهم . . . فطلبوا من القاهرة عن طريق رؤسائهم ومشايخهم هذا الأمر . . . وليس أدل على صدق هذا القول ذلك الاستقبال الحافل الذي كانت تستقبل به القوات المصرية حين دخولها هذه الأقاليم ثم ذلك الوداع المؤثر الذي ودعت به حينما صدرت اليها الأوامر بمغادرتها بناء على ضغط الدول الاستعمارية .

لقد تركت الادارة المصرية خلال فترة قصيرة لا تزيد عن الخمسة عشر عاما آثارا ضخمة في شئ المرافق والمجالات في مدن الصومال وقراه . . . فمن تشجيع للزراعة وزيادة مساحة الأرض المزروعة وادخال مزروعات جديدة الى ازدهار في الصناعة والتجارة بشكل لم تشهد له البلاد نظيرا من قبل ، فقد أدخلت صناعات جديدة تعتمد على المواد الأولية الموجودة ونشطت الموانئ التي استحدث المصريون فيها أحدث الأساليب كالأرصيف والفنارات لتستقبل الواردات وتصدر الصادرات ، وعنى المصريون بالتعليم فأنشأوا المدارس وأوفدوا بعثات من أبناء هذه البلاد للدراسة في الأزهر . . . كما وجهوا اهتمامهم بالحالة الصحية فأنشأوا المستشفيات في المدن الهامة والمستشفيات المتنقلة تجوب القرى وكان يشرف عليها أطباء من القاهرة لمقاومة الأمراض والأوبئة . كذلك أنشأ المصريون مدنا جديدة وأدخلوا التحسينات على المدن القديمة بما أقاموه من مبان ومنشآت على أحدث طراز لا زال بعضها قائما يحكى تاريخ هذه الفترة الذهبية في تاريخها .



وعلى العموم . . . لم تترك الادارة المصرية سبيلا للاصلاح الا وطرقته في هذه البلاد لصالح أبنائها وسخرت في هذا امكانياتها المادية والأدبية

حتى أصبحت هذه الجهات تضارع أرقى المدن في ذلك الوقت ، الأمر الذي دفع الدول الاستعمارية الى التفكير للظفر بهذه الغنيمة الباردة التي تتمتع بما لا يتوافر في غيرها . وفي نفس الوقت أثمرت الادارة المصرية في خلق وعى قومي شامل لهذه البلاد لم يكن موجودا في غيرها من الدول الافريقية، فلقد عرف المواطنون في الصومال معنى الحرية وعشقوا أساليب الحضارة والمدنية التي أدخلها المصريون ، فكان من الصعب ارغامهم على قبول الأوضاع التي أراد الاستعمار فرضها عليهم فيما بعد ومن هنا تعددت ثوراتهم ضد الحكم الاستعماري وأساليبه انباطشة .. وقام ثوارهم أمثال محمد ابن عبد الله الحسن وغيره ليقاوموا هذا التحكم وليقضوا مضاجع الاستعمار في كل وقت ، فلم ير لحظة هناء أثناء حكمه هذه البلاد على عكس ما وجدته في بلاد أخرى من خنوع واستكانة ..

ولا نريد هنا أن نشيد بفضل الادارة المصرية البارة على هذه الجهات ولكن نريد أن ننفي ما أراد الاستعمار الأوربي الصاقيه بها من أنها ادارة استعمارية . وهذه الأعمال الهائلة التي ذكرنا بعضها تفند هذه المزاعم والأباطيل ..

هذه هي صورة من الحالة التي كانت عليها بلاد الصومال في الفترة التي عاصرت مولد بطل كفاحها في العصر الحديث وقائد ثورتها التحررية ضد الاستعمار محمد بن عبد الله الحسن .

الفصل الثاني وسط روضة الإستعمار

نشأ محمد بن عبد الله حسن كما ينشأ أبناء الاسرة الصومالية الأصيلة على الدين والورع فالتحق وهو فى طفولته بكتاب القرية لتلقى مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن حتى أتقنه فى سن مبكرة وشبت معه غريزة اكتمال الشخصية وهو لا يزال صـبياً فكان يرتاد مجالس الشيوخ والعلماء والقضاة ليأخذ عنهم التفقه فى الدين والحجة فى المنطق والقوة فى التأثير ، ويستكمل مقوماته التى توصله الى مبلغ العلماء والمتفهمين ، وقد استطاع بذكائه وسرعة استجابته أن يخلق لنفسه مكاناً مرموقاً على مر الأيام بين أهل الفقه والدين ، فملاً بشخصيته قلوبهم مما دفعهم الى احترام شخصه ، والأخذ برأيه وعن طريق صلاحه وتقواه وولايته اكتسب اسم الوداد ، وهى باللغة الصومالية تعنى القاضى أو الواعظ أو الفقيه أو المفتى .

وشأنه شأن شباب الصومال .. كان عليه أن يمارس مهنة يدخل فيها عنصر الرياضة فكانت هناك مهنة الصيد والفروسية والملاحة وغير ذلك ، وقد اختار هو حرفة الملاحة التى مارسها عدة سنوات أكسبته قوة فى البنية وأصراراً على مواجهة الخطوب .

رأى محمد بن عبد الله حسن بعد هذه المرحلة من سن الشباب أن يصقل ثقافته الدينية ، فقرر الذهاب الى بلاد الحجاز حيث يجتمع شيوخ أفاضل من مختلف بلاد العالم الاسلامى فيستزيد بعلمهم . وسافر الى مكة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وهو يأمل فى أن يكون من علماء الطليعة التى اشتهرت بلاد الحجاز بتخريجهم آنذاك .. فكانوا من أعلام الدين والتصوف والكفاح الذين تركوا أثراً بالغا فى حياة بلادهم وشعوبهم ، وقادوا ثورات تحررية اجتمعت فيها عناصر التضحية والفداء مع الايمان والعزيمة ، وفعلاً نجح الملا فى تحقيق رغبته وما هى الا سنوات قليلة حتى

كان يكمل هذا العقد الفريد الذى انتظم الحسركة الوهابية فى الحجاز والحركة السنوسية فى ليبيا .. والحركة المهديّة فى السودان .

وكان من أبرز أساتذة ثائر الصومال .. الشيخ محمد صالح السودانى الذى لقنه أصول الاستبسال فى سبيل نصره الدين والوطن ، وكان ينقل اليه أخبار ثورة عرابى فى مصر وثورة المهدي فى السودان وكيف توحدت أهداف الثورتين فى استخلاص الوطن لبنيه من حكم الدول الاستعمارية وسيطرتها ، ومكافحة النفوذ الأجنبى الذى بدأ يغزو بلادهما فى صورة طوفان عارم .

وفى عام ١٨٩٥ استقر به المقام فى ميناء بربره كخليفة للشيخ محمد صالح صاحب الطريقة الصالحية وعمل على نشر تعاليم هذه الطريقة وعلى تعليم الأهالى أصول العبادة والتقرب من الله ، ولم يشأ أن يقصر جهوده على مكان واحد ، فكان انتقاله الى مدينة كيرت ، وهناك أقام مسجدا ليلتقى فيه بتلاميذه ومريديه وبعد أن استقرت دعوته واشتهر اسمه فيها قرر الرحيل الى كوب فارادود فى وادى السنولى موطن أمه حيث أقام هناك مسجدا أيضا لنفس الغرض .

وكانت سياسة الملا تتركز فى ضرورة جمع كلمة الصوماليين وتوحيد صفوفهم لمواجهة العدو المشترك وهو الاستعمار وذلك تحت قيادته كزعيم دينى يقدر مصلحة وطنه ومواطنيه . وشعر وهو بصدد تحقيق هذه السياسة أنه لا محالة من اصطدامه بالزعماء القبليين الذين يسيطرون على أنحاء الصومال كل فى دائرة نفوذه . وكما هو معروف فى المجتمعات الأفريقية آنذاك كانت القبيلة تشكل أساس المجتمع ، ورئيسها دعامة هذا الأساس تجتمع فى يده السلطات ويعتبر المرجع النهائى فى كل الأمور .. ومسألة خروج أحد اختصاصاته أو أهمها وهى الزعامة الى يد أخرى معناه انقلاب خطر فى الحياة الاجتماعية لا يرضى عنه على الإطلاق لما فيه من تقليل من هيئته ونفوذه .

بدأ محمد بن عبد الله حسن طورا جديدا من أطوار كفاحه وهو جمع الصوماليين الى زعامته الدينية داخلا بذلك فى منافسة خيرة مع زعماء القبائل الذين يحرصون على دوام ولاء الصوماليين لزعامتهم القبلية والابقاء على ركائز المجتمع بوضعها الذى ألفه الناس . وكانت الحرب بين الفريقين حربا بين مبدأين .. كل له أنصاره ومؤيدوه .

وقد ظل هذا الوضع شوكة فى حلق بطل الصومال طوال أيام كفاحه ضد الاستعمار الذى عانى منه الكثير وخاصة أن عداوة زعماء القبائل له .. استلزمته الحرب فى جبهتين .. جبهة فى الداخل ضد

بوسائلهم ومناوراتهم ضده ، وافسادهم خططه ومشاريعه ، وجبهة في الخارج قوامها الدول الاستعمارية التي اقتسمت أرض مصر ، وزعماء القبائل هؤلاء الذين ساندوا الاستعمار واتجهوا نحوه ليجدوا فيه ما يعرضهم عن نفوذهم الذي أفقدهم إياه زعيم ثورة الصومال وغريم الاستعمار .

ويذكر البعض أنه لولا تكاتف زعماء القبائل مع دول الاستعمار لتحقيق أغراض شخصية زائلة لانتصر الملا في وقت قصير وخاصة أنه ظل مسيطرا على دخل البلاد لمدة عشرين عاما تقريبا اضطرت خلالها الاستعمار الانجليزى الى الهرب لمناطق الساحل وتركيز قواته هناك فرارا من هجماته المتعددة والتفاف العناصر الوطنية التي أيقظها الوعي والادراك حوله .. وحرصها على نجاح ما هدف اليه من اجلاء المستعمر عن أرض الصومال تلك التي اقتسمها الاستعمار وجعل منها الصومال الانجليزى والصومال الفرنسى والصومال الحبشى والصومال الايطالى .

وجدير بنا أن نوضح مراحل السياسة الاستعمارية التي انتهت الى هذا التقسيم وذلك قبل أن نواصل الكلام عن مرحلة النضال التي حمل لواءها ثائر الصومال ضد هذه القوى .

كان التسابق الامبريالى الأوروبى على امتلاك أجزاء من افريقيا عامة .. وساحلها الشرقى خاصة .. من الاسباب المباشرة التي أدت فى النهاية الى انسحاب مصر من هرر والصومال عام ١٨٨٥ تحت ضغط احدى الدول الاستعمارية المتنافسة وهى بريطانيا .. التي أرغمت مصر على إخلاء هذه المناطق .. وقد حالت الظروف آنذاك دون تملك بريطانيا للصومال وهرر .. كما سنبين فيما بعد فتركت هذه الجهات بضع سنوات تتأرجح بين أطماع دول الاستعمار المصطنعة فى شرق افريقيا على خلق مناطق نفوذ لها .. وتملك قواعد ارتكاز فيها .

وقد جاء هذا التحول السريع فى السياسة الأوربية الامبريالية بالنسبة لافريقيا منذ عام ١٨٨٠ ففى تلك السنة بدأت الدول الأوربية تدخل هذه القارة فى نطاق سياستها .. وأخذ الأوربيون فى بسط سلطانهم على أجزاء فى افريقيا ، فأخذ البلجيكيون الكونغو واستولت فرنسا على تونس واحتلت انجلترا مصر .

وباحتلال انجلترا لمصر .. أصبحت أملاك الأخيرة على ساحل البحر الأحمر وفى شرق افريقيا هدفا لأطماع الاستعمار .. ومركزا جذب اليه أنظار رجال السياسة والحرب والأعمال والاقتصاد . وقد ساعد على ذلك عدة عوامل كان أهمها أن مصر قد هيأت هذه الجهات لتقبل الحضارة ..

وأدخلت فيها أساليب العمران فشجعت الزراعة والتجارة ونشرت التعليم
وسائر مرافق الإصلاح الأخرى .

* * *

وكانت أملاك مصر في هرر وساحل الصومال والبحر الأحمر ليست ذات أهمية بالنسبة لبريطانيا فحسب بل بالنسبة لفرنسا أيضا التي كانت مشتركة معها في الاشراف المالي على مصر وعضو معها في اللجنة الثنائية . . وجميع اللجان التي ألفت للاشراف على مالية مصر - وعلى هذا اشتركت كل من الاغراض الاستراتيجية والتجارية - في تحويل أنظار الانجليز والفرنسيين الى البلدان التي امتدت اليها الادارة المصرية في شرق افريقيا والبحر الأحمر أي الى طريق التجارة الحيوى الى الشرق . . وبذلك انتقلت أضواء السياسة الانجليزية والفرنسية الى هذه المنطقة .

وفي هذا الوقت . . كانت ايطاليا الدولة الناشئة . . قد استكملت وحدتها السياسية منذ عهد قريب . . وأخذت هي الأخرى تتطلع الى التوسع الخارجى فى افريقيا مقلدة الدول الكبرى . . وقد تطلعت ايطاليا فى بادئ أمرها للاستيلاء على تونس لقربها للأراضي الإيطالية . . لكن فرنسا قضت على أطماع ايطاليا فى تونس . . ومن ثم عاودت ايطاليا الكرة فى ميدان آخر عليها تجد فيه بغيتها ويكون مجالا لتوسعها فى افريقيا الشرقية تعوض به خسارتها السابقة فى تونس .

* * *

وكانت من أولى آثار هذا الاتجاه الجديد فى السياسة الامبريالية الأوروبية فى ساحل البحر الأحمر وشرق افريقيا . . أن تشابكت مصالح فرنسا وانجلترا فى منطقة واحدة . . وأخذت هذه الدول تتنافس على مناطق نفوذ فى هذه المنطقة . . وأخذ كل من هذه الأطراف الثلاثة المتسابقة يعمل على كسب أرض جديدة له .

وتذكرت فرنسا فجأة عام ١٨٨١ أنها كانت قد اشترت من عشرين سنة أى فى عام ١٨٦٢ منطقة أوبوك على خليج تاجوره . . وظلت هذه المنطقة مهملة لم تهتم بها فرنسا الى أن كان عهد التسابق الاستعماري فى افريقيا فأسرعت فرنسا لتستفيد من أوبوك .

وقد ظهر أن لهذه المنطقة فائدة مزدوجة . . فهي تقع على مخرج بوغاز باب المندب . . وبذلك فهي مركز استراتيجى مهم يسيطر على الطريق الى الشرق . . ثم انها فى نفس الوقت منطقة تصلح مركزا للتجارة مع الداخل . . أى مع هرر ومملكة شوا .

وهكذا اتضحت أهمية أوبوك وفائدتها .. فأسرعت فرنسا لاستغلال هذه الفرصة فأرسلت قوة لاحتلالها وتم لها ذلك .. ولم يقف الفرنسيون عند هذا الحد .. بل رأوا أن يوسعوا دائرة نفوذهم بجانب أوبوك وواتتهم الفرصة الطبيعية ففي هذه الأثناء كان الزعماء المحليون يعملون على التخلص من أملاكهم ومستولياتهم خوفا من الاستعمار الأوربي وقرارا بأموالهم من طريقه .. وكان أحمد بن محمد سلطان تاجوره من هؤلاء الذين عملوا على التخلص من مستولياته .. فتفاوضت معه فرنسا على شراء خليج تاجورا .. وتم ضمه الى أملاك فرنسا .

وكان ظهور النشاط الفرنسي في منطقة أوبوك عام ١٨٨١ وامتداده الى منطقة تاجورا أمرا أزعج رجال الأعمال ورعوس الأموال الإيطالية .. فقد كان هؤلاء يتطلعون الى هذه المنطقة لامتلاك مراكز فيها بعد أن تحطمت آمالهم في تونس على أيدي الفرنسيين .. ولكن إيطاليا صممت على ألا تلاقى في البحر الأحمر المصير نفسه الذي سبق أن لقيته في تونس ، وأن تعمل على خلق مركز لها في هذه المنطقة مهما كلفها ذلك من ثمن . وتذكرت إيطاليا هي الأخرى .. أنها كانت قد اشترت منذ عام ١٨٦٩ موقعا قريبا من أوبوك يقع شمال تاجوره ويعرف بخليج عصب .. كان قد اشتراه الإيطاليون من السلطان المحلي .. فأرسلت إيطاليا قوة لاحتلال عصب التي دخلت تحت السيادة الإيطالية .. فاذا كانت فرنسا قد اشترت أوبوك وسيطرت على خليج تاجوره فان إيطاليا قد اشترت خليج عصب وسيطرت عليه .



وكان ظهور النفوذ السياسي لكل من فرنسا وإيطاليا في هذه المنطقة من ساحل الصومال أمرا أثار اهتمام إنجلترا .. لأنها تقع في الطريق الى الهند .. ومن الأمور التي تحرص عليها بريطانيا تأمين طريقها الى الهند والحيولة دون تعرضه للوقوع في أيدي غير بريطانية .. وكان لابد لبريطانيا أن تعمل على رعاية مصالحها وهي صاحبة امبراطورية الهند ويهمها الأسواق التجارية في افريقيا من ناحية .. وطريق المواصلات الى امبراطوريتها الواقع في افريقيا من ناحية أخرى .

وهكذا بدأت أهداف كل من فرنسا وإيطاليا وإنجلترا السياسية في ساحل البحر الأحمر وشرق افريقيا تتضارب وتتعرض لخطر الاحتكاك .



أما عن السياسة البريطانية في هذه المنطقة من افريقيا .. فانها

مرت بلحظات حرجة في الفترة من عام ١٨٨٠ - ١٨٨٥ . . ففي الوقت الذي كانت فيه فرنسا توطد أقدامها في أوبوك وخليج تاجوره وكانت إيطاليا تبعث بقواتها لاحتلال عصب ومملكة السلطان برهان . . كانت إنجلترا تعد عدتها لاحتلال مصر عام ١٨٨٢ .

وكان يتجاذب السياسة الانجليزية - عامل الواقع وعامل السياسة التي كانت تسير عليها حكومة الأحرار في بريطانيا . . فبالنسبة للعامل الأول . . وجدت إنجلترا كلا من إيطاليا وفرنسا تنفذان سياستيهما الاستعمارية لامتلاك مناطق على ساحل البحر الأحمر وساحل افريقيا الشرقية ، فلو وقفت هي مكتوفة الأيدي لضاعت هذه المنطقة كلها من يدها ولتهدد من ثم طريقها إلى الهند . أما بالنسبة للعامل الثاني فإن وزارة الأحرار برياسة جلادستون كان من أهم مبادئها مقاومة التوسع الاستعماري . . وإذا كان لابد من التوسع فيكفي احتلال بريطانيا لمصر .

وانتصرت سياسة الواقع . . واضطرت وزارة جلادستون إلى الدخول في ميدان التوسع الاستعماري مخالفة بذلك مبادئها . . ورأت بريطانيا أن تحتل جزءا من ساحل الصومال حتى تمنع التوسع الإيطالي الفرنسي ، وعملت حسابها أن يكون توسعها على حساب أملاك مصر في هذه المنطقة . . أو الأملاك التي تدعيها لمصر فيها . . وخاصة بعد أن أصبحت مصر واقعة تحت سلطانها . ومن ناحية أخرى . . رأت إنجلترا أن ملكية مصر وحقوقها في ساحل الصومال وشرق افريقيا لم تمنع إيطاليا من احتلال عصب . . ولم تحل دون سيطرة فرنسا على أوبوك وتاجوره .

وبدأت بريطانيا تعد عدتها لمنع تسرب باقي ساحل الصومال إلى أيدي فرنسا وإيطاليا ورأت أن تسيطر على منطقة هامة . . هي عصب الساحل - وهي منطقة همرر فقد نظرت إليها كمركز هام للتجارة وكنقطة استراتيجية بالنسبة لساحل الصومال كله . . فأخذت بريطانيا تعد عدتها للانقضاض على همرر ومن ثم دخلت هذه المنطقة إلى محور السياسة الأوروبية الاستعمارية .



وكان أهم ما أسفر عنه التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية على تملك مناطق نفوذ لها في افريقيا - الاحتلال البريطاني لمصر - مصر التي كانت تسيطر آنذاك على ساحل البحر الأحمر وبلاد الصومال وهمرر والسودان . . وأصبحت بريطانيا ترى أنه بحكم وضعها الجديد كدولة احتلال لها حق السيطرة على أملاك مصر . . وبهذا وضعت الدول المنافسة لها وخاصة فرنسا أمام الأمر الواقع .

صحيح أن انجلترا كانت قد أعلنت أكثر من مرة أن احتلالها لمصر
إنما هو احتلال مؤقت وذلك ذرا للرماد في العيون .. حتى تتمكن من
ترتيب أمر استعمارها لمصر وأملاكها .. وفي الوقت نفسه لم تستطع
بريطانيا إخفاء قلقها على تنفيذ سياستها الاستعمارية قبل فوات الأوان
وخاصة أن دولا غيرها بدأت تسعى لتحقيق هذه السياسة .. واقتربت
في مناطق نفوذها من أملاك مصر في ساحل البحر الأحمر وشرقي افريقيا .

وعلى هذا الأساس وجهت بريطانيا همها الى ساحل الصومال وهرر
لتنفيذ سياستها الاستعمارية في أملاك مصر على الساحل .. وتلك التي
تقع أيضا عند منابع النيل .. فمصر مرتبطة بالنيل .. وتحتوي أثيوبيا على
جزء هام جيوى من منابع النيل .. ولم يكن هناك تهديد حقيقى آنذاك
بالنسبة لمصر والنيل طالما أن مناطق الحبشة في أيدي أهلها .. وهؤلاء
لا تسمح لهم حالتهم وامكانياتهم وقوتهم بالتحكم في مياه النيل .. ولكن
الأمر يختلف كلية اذا سيطرت على أثيوبيا أو هرر أو الصومال دولة
أوروبية قوية ، فانها في هذه الحالة تستطيع أن تضر بمصالح مصر ..
التي هي تحت سيطرة بريطانيا .. وهذا ما حرصت بريطانيا للحيلولة
دون وقوعه .



ويلاحظ أنه عندما احتلت انجلترا مصر .. منعت فرنسا من القيام
بمثل هذا العمل من ناحية الشمال وقد شعرت انجلترا بتهديد فرنسا
لها ومحاولتها التوغل في حوض النيل .. وتهديد مصر من ناحية
الجنوب .. والجنوب الشرقي .. أى أنه اذا كانت انجلترا قد أمنت
لصالحها حوض النيل من ناحية الشمال فانها لم تؤمن حوض النيل من
الجنوب الشرقي من خطر التهديدات الفرنسية .. وتوسع فرنسا في
منطقتي أبوك وتاجوره .. ولم تقابل انجلترا هذا التوسع الفرنسى
بارتياح .. لأنها وجدت فيه خطرا شديدا .. اذ من المحتمل أن تنجح
فرنسا في أى وقت من الأوقات في مباشرة توسعها وربما نجحت في
التوغل في أعالي النيل فتسيطر بعد ذلك على منابعه .

لهذا كله .. أصبح من أهم أهداف السياسة البريطانية السيطرة
على منابع النيل سواء تلك التي تقع في الحبشة أو في منطقة البحيرات
الاستوائية ، وهذا لا يتم الا بالسيطرة على أوغنده وبحر الغزال وهرر
والحبشة والصومال .. أو على الأقل تمنع أية دولة أوروبية من أية سيطرة
على هذه المناطق والحيلولة دون تملكها لها .



وكان ظهور النفوذ الفرنسى فى منطقتى أوبوك وتاجوره : : ثم سعى
ايطاليا لايجاد منطقة نفوذ لها فى عصب يعنى احتمال توسع احدى هاتين
الدولتين أو كليهما فى الحبشة وهرر . . واخضاع احدى مناطق منابع
النيل لقوة أوربية منافسة لانجلترا .

ورأت انجلترا أن تدخل ميدان التوسع الاستعمارى بصورة سافرة.
عن ذى قبل . . فاستغلت الحوادث لكى تنفذ أغراضها تدريجيا وبصورة
دقيقة منتظمة .

استغلت الأزمة المالية فى مصر لتتدخل فى شئونها . . . واستغلت
الثورة العرابية لتحل مصر . . واستغلت الثورة المهدية فى السودان
لتفنى الجيش المصرى فى حملة هكس . . واستغلت هزيمة هكس الساحقة
أمام قوات المهدي لتطلب من الحكومة المصرية الواقعة تحت سيطرتها اخلاء
السودان وملحقاته .

واستغلت اخلاء السودان وملحقاته للوثوب الى هذه الأملاك
والانقضاض عليها وضمها الى دائرة نفوذها .

كل هذا أقدمت عليه بريطانيا وقامت بتنفيذه مستغلة براعتها
ودهاءها فى التمويه . . فأحاطت هذه العمليات السريعة بسياج من
الحرص والادعاء الكاذب بالمحافظة على أملاك مصر وذلك حتى تتخلص من
منافسة الدول الاستعمارية المتزاحمة معها على امتلاك قواعد فى هذه
المنطقة .



وقد أصبح الموقف كالتالى بعد صدور القرار باخلاء هرر والصومال
وملحقاتها من الادارة المصرية . بالنسبة لزيلع . . طلبت الحكومة
البريطانية عن طريق سفيرها فى الآستانة من الحكومة التركية فى ١٤ من
مايو ١٨٨٤ أن تبادر هذه الحكومة باستئناف ممارسة حقوق السيادة على
الموانى التى كانت خاضعة للادارة المصرية على ساحل البحر الأحمر الغربى
وأن يحتل جنود عثمانيون هذه الموانى فورا . . ثم عادت فى ١٧ من مايو
فطالبت من الباب العالى أن يتخذ الخطوات الضرورية لفرض سيطرته على
ميناء زيلع وميناء تاجوره بمجرد انسحاب القوات المصرية منها . . وكان
هذا الذى طلبته بريطانيا ليعنى حرصها على الدولة العثمانية وأماكها
بل كانت رغبة منها فى أن تبعد التنافس الاستعمارى الأوربى عن هذه
الموانى بوضعها تحت اشراف أصحابها الشرعيين . . وذلك الى أن تحين
الفرصة المناسبة ليتم استيلاؤها - أى بريطانيا - عليها .

وقد قررت بريطانيا تنفيذ هذا الأمر وقامت باحتلال ميناء زيلع . .

وكان أمر زيلع ينطق بغرابة تصرفات السياسة البريطانية .. اذ بالرغم من امتلاك بريطانيا لهذه المنطقة منذ عام ١٨٨٤ فانها أرغمت الحكومة المصرية التي أخلت زيلع وهرر على دفع مرتب نائب القنصل الانجليزى ونفقاته ونفقات الادارة فى زيلع .. كما ظلت الحكومة المصرية تدفع للباب العائى مبلغ - ١٥٠٠٠ جنيه مقدار الجزية السنوية عن زيلع المحتلة ولما اعترضت مصر على هذا الوضع .. كان رد بريطانيا أنها ترى أن مصر ليس لها أن تشكو منها .. فلسنا مسئولين عن صفقة عام ١٨٧٥ الخاسرة لأن زيلع لا تغطى نفقاتها .



أما إيطاليا .. فقد حولت ميناء عصب فى يونيو ١٨٨٢ الى مستعمرة ايطالية وقدم بذلك قانون الى مجلس النواب الايطالى .. وفى يناير ١٨٨٥ احتل الطليان بيلول شمال خليج عصب وطرردوا الحامية المصرية منها بعد أن جردوها من السلاح .. وفى شهر فبراير من نفس السنة .. قررت إيطاليا بالاتفاق مع بريطانيا احتلال مصوع وبسط حمايتها على الساحل من عصب الى مصوع .. وكان ذلك مبدأ تأسيس ارتريا وقد جاء فى وثائق وزارة الخارجية الانجليزية أنه فى يناير ١٨٨٥ أعلن وزير خارجية روسيا وسفير انجلترا فى بطرسبرج بأنه لم يكن هناك أى أساس أو ذريعة تخول إيطاليا الحق فى الاستيلاء على بيلول أو مصوع ولا سيما أن كلا من البلدين كانت تحتله حامية مصرية .. ولا شك فى أن عمل إيطاليا يعد مخالفة لروح المعاهدات القائمة .

وفى شهر ديسمبر عام ١٨٨٥ تم للايطاليين دخول مصوع واحتلالها وطرردوا الحامية المصرية منها بعد أن استولوا على ذخيرتهم ومؤنهم وجميع أملاكهم .. ولما طالبت مصر إيطاليا بتعويضات سلكت إيطاليا مسلكا يشابه ذلك الذى اتبعته بريطانيا عقب استيلائها على زيلع .. اذ رفضت أن تدفع أى تعويض .. وأكثر من ذلك .. كانت مصر تدفع للباب العالى مبلغ ١٧٠٠٠ جنيه مصرى جزية سنوية نظير التنازل عن مصوع وظلت مصر - بعد احتلال الطليان لهذا الميناء تدفع هذا المبلغ .



أما فى تاجوره .. فقد عقد الفرنسيون مع أحد مشايخها معاهدة فى ١٧ من مارس ١٨٦٢ تخول لفرنسا نظير مبلغ من المال الحق فى امتلاك أو بوك والمنطقة المجاورة لها والبالغ مساحتها ٢٥ ميلا مربعا فى خليج تاجوره .. وانتهزت فرنسا فرصة القرار الذى صدر بإخلاء هرر من الادارة المصرية فبعثت بمركب فرنسى الى ميناء ورشال القريب من تاجوره فى أوائل مايو عام ١٨٨٤ وقد مهد وصوله لضم تاجوره نهائيا الى فرنسا

وهناك اتجاه هام أثر في مجرى السياسة الأوروبية نحو أملاك مصر في هرر والصومال وكان هذا الاتجاه هو الاتجاه التجاري .. فقد انتصرت سياسة الاستعمار الاقتصادي على كل سياسة أوروبية أخرى وخاصة بالنسبة لبريطانيا التي سعت للاستيلاء على جزء كبير من الساحل لاستعماله في الأغراض التجارية .. وقد عرف بالصومال البريطاني ويمتد من زيلع الى بندر زيادة .

وفي الوقت الذي وضعت فيه إنجلترا يدها على هذا الجزء .. ذهبت فرنسا الى أوبوك ودعمت سيادتها عليها لاحتمال تحول هذا الميناء الى مركز للتجارة مع هرر .

ومنذ هذا الوقت .. بدأ التنافس القوي يأخذ دوره في العلاقات بين فرنسا وإنجلترا وكان هدفه السيطرة على أسواق هرر والصومال والموانئ الواقعة على الساحل لتصدير واستقبال السلع المختلفة .. وقد استمر هذا التنافس الاقتصادي بين الدولتين فترة ٢٢ عاما ودخلت في هذا الميدان إيطاليا كطرف تسانده بريطانيا للوقوف في وجه الأطماع الفرنسية .. والملاحظ أن هذه المنافسة الاقتصادية قد تركزت في منطقة الصومال عامة وفي مقاطعة هرر خاصة .. يوضح بها الطريق الطبيعي للتجارة في الشرق .. والمركز العام الذي تلتقى فيه طرق التجارة والقوافل من الساحل الى الداخل وبالعكس .

وربما كان الانجليز يرغبون منذ البداية في الاستيلاء على المناطق التي أخلاها المصريون وهي موانئ ساحل البحر الأحمر الغربي واقليم هرر . ولا غرو في ذلك فان قرار اخلاء هرر الذي أرغموا حكومة مصر على قبوله وتنفيذه كان تمهيدا ليستأثروا هم بهذه المناطق .. وقد تسلم الانجليز السيادة على بربره في الصيف والحريف ١٨٨٥ وتمت هذه العملية بهدوء تام .

* * *

وكان الأمر على غير ذلك في زيلع .. فقد اصطدمت المصالح البريطانية مع مصالح حاكم ميناء زيلع أبو بكر شحيم الذي كان موضع تعظيم قبائل الدناكل التي تقيم في هذه المنطقة وكان من رأى هذا الحاكم أن تظل زيلع تحت الادارة المصرية وأصر هو وأفراد أسرته الكبيرة العدد على الاستمسك بهذه الادارة ومنع محاولة أية ادارة أخرى تحاول النفاذ اليهم وخاصة ان كانت بريطانيا .. فقد كشف نوايا بريطانيا لديه وتبينت له أعمالها العدوانية ضد المواطنين وضد سلامة المنطقة كلها .. وذلك حتى تخلق الجو المناسب لها للسيطرة على هذه الجهات .

وهكذا كانت ميول أبو بكر شحيم واضحة نحو تأييد أية دولة

أوربية أخرى تنافس انجلترا فى هذه المنطقة فقد كانت رغبته أكيدة فى محاربة الاستعمار الانجليزى الذى أخذ يسعى الى بلاده عن طريق بث الدسائس والفتن بين الأهالى .

ثم يكن من السهل أن تسلم فرنسا لبريطانيا بهزيمة نفوذها الذى ظلت تحتفظ به أكثر من عام فى هذه المنطقة ومن ثم حاولت عرقلة السياسة البريطانية بتأليب القبائل الموالية لها على الانجليز. ومن يساندونهم من أفراد القبائل الأخرى وخاصة قبائل العيسى . وكان معنى هذا حدوث ملاحم دموية زعزعت الأمن فى هذه الجهات وأصبح يخشى على كلا النفوذين الفرنسى والانجليزى من الضياع . . . وذلك لو تنبه أفراد القبائل الى أنهم وقود فى معركة لصالح الاستعمار الأوربى . . . ولهذا رأت الحكومتان الفرنسية والانجليزية وضع حد لهذه الاشتباكات الدموية حتى لا يصاب توسعهما أو نفوذهما فى المنطقة بأية خسائر . . . واستقر الرأى فى يناير ١٨٨٧ على عزل كل من القنصل الفرنسى فى هرر والقنصل البريطانى كنج فى منطقة زيلع . . . وتعيين قنصلين بدلا منهما حتى تزول حالة التوتر وتعود الأمور الى حالة طبيعية تخدم مصالح الدولتين المتنافستين .



وعلى أثر تغيير القنصلين الفرنسى والبريطانى فى زيلع . . . شرعت فرنسا وانجلترا فى التفاهم الودى حول حدود قوات الحكومتين على ساحل الصومال وذلك لتأمين مصالحهما والاتفاق على منطقتى نفوذ لهما دون تعارض للرغبات . . . وذلك أسوة بما حدث على ساحل زنجبار بين ألمانيا وانجلترا اللتين اقتسمتا المنطقة بطريقة ودية .

وسارت المفاوضات بين فرنسا وانجلترا بنجاح تام . . . وفى مايو ١٨٨٧ تم عقد اتفاق بينهما يقضى بتنازل انجلترا عن جزر موشاح - كما تعترف بحقها فى أوبوك وتاجوره وأمباد وذلك فى نظير التنازل من جانب فرنسا لانجلترا عن ميناء دونجريت .

وتمتد الحدود الفاصلة بين المناطق الانجليزية والفرنسية من رأس جيبوتى الى هرر ومنها الى الغرب الى شوا . . . فالبلاد الواقعة فى الغرب والشمال من هذا الخط وأغلبها بلاد الدناقل الجنوبية الشرقية تقع فى حوزة الفرنسيين . . . والمناطق الواقعة شرق الخط المذكور وهى بلاد العيسى والصومال والجاديبروصى فى ضواحي هرر . . . تقع فى حيازة البريطانيين .

وقد خرجت فرنسا من هذا الاتفاق بنصيب الأسد . . . وفى الوقت

الذى ظفرت فيه بمناطق حيوية وأكدت سيادتها على جزء هام من ساحل الصومال لم تخسر شيئاً حينما تنازلت عن دونجاريتا للانجليز ، فقد فقد هذا الميناء آنذاك أهميته فى السيطرة على طريق التجارة بين الداخل والساحل ، ذلك لأن الاحوال الداخلية فى هرر والاضطرابات التى اكتنفتها وسوء الإدارة وانعدام الامن على يد أميرها عبد الله عبد الشكور نجم عنه توقف طرق القوافل بين هرر والساحل وبين هرر والحبشة . . فلم يكن هناك أى سبب يستدعى تمسك الفرنسيين بهذا الميناء الذى كانت له أهميته فى يوم ما . . وكان رأى الانجليز أن السياسة قد تتغير فجأة . . فيعود عليهم استيلاؤهم على دونجاريتا بالكسب .

* * *

هذه التسوية التى تمت بين دولتى الاستعمار فرنسا وانجلترا لم تكن لترضى عنها الحبشة . فقد أدرك مينيلك ملك شوا حقيقة نوايا الدولتين فى السيطرة على الساحل واقتسامه لمناطق نفوذ . . ثم السيطرة على هرر . . فان معنى ذلك هو الرغبة فى السيطرة على تجارة الحبشة . . وكانت رغبة الحبشة فى الحصول على ميناء على الساحل من الأمور التى حرصت على تحقيقها بعد اخلاء المنطقة من الادارة المصرية . . وذلك ليكون متنفساً لها وخاصة أنها لا تملك أية ميناء على الساحل . . وعلى هذا بدأت الحبشة تلعب دورها بالنسبة لدول الاستعمار من ناحية وبالنسبة لبلدان هذه المنطقة من ناحية أخرى .

* * *

وقبل أن نتناول سياسة الحبشة . . نلقى نظرة على الدور الذى قامت به ايطاليا فى هذه المنطقة للحصول على مناطق نفوذ .

بدأ نشاط ايطاليا فى منطقة الصومال بشرائها ميناء عصب من مشايخ القبائل فى هذه الجهات وذلك عام ١٨٦٩ . وقد امتدعى التنافس الاستعماري الأوربي الذى بدأ فى الثمانينات من القرن الماضى أن تؤكد ايطاليا امتلاكها لعصب . . وكانت الخطوة التالية استيلاءها على ميناء مصوع عام ١٨٨٥ . وكانت مصوع منذ وقت قريب فى أيدي المصريين ثم انتقلت الى ايطاليا بموافقة انجلترا وتحريضها وذلك لمنع سلطان المهدي فى السودان من الاستفحال . . ويؤيد هذا النصر السرى فى الاتفاقية الانجليزية الايطالية (١٨٩٤) التى وافقت فيها انجلترا على أن تحتل ايطاليا كسلا كلها . . وكانت وقتئذ فى أيدي الدراويش ومن هذا يتضح أن تأييد انجلترا لايطاليا فى مصوع كان خدمة لسياستها فى حوض النيل . . وذلك لمساعدتها فى وقف خطر محمد أحمد المهدي . . ولتكون ايطاليا حائزاً بين نفوذه فى الداخل وتحول دون وصوله الى الساحل .

غير أن استيلاء إيطاليا على مصوع قد خلق موقفا معقدا . ولذلك عندما اتضح القصد من ذلك . . كان أنصار التوسع الامبراطورى فى إيطاليا يعارضون فكرة جعلهم مجرد حاجز أمام قوات المهدي كما أراد لهم الانجليز أن يكونوا . . بل أعلنوا أهدافهم فى ضرورة التوسع فى الحبشة . . وكان على رأس أنصار التوسع الامبراطورى السنيور كرسبي . . فقد أرادوا لإيطاليا بعد استيلائها على مصوع أن تشارك انجلترا وفرنسا فى انشاء تجارة مع الحبشة عن طريق هرر . . وذلك حتى تخلق صلة تجارية بينها وبين مصوع التى تحتلها . . ومن هذا يتضح أن تأييد انجلترا لإيطاليا فى مصوع كان خدمة لسياستها فى حوض النيل وذلك لمساعدتها فى وقف خطر المهدي فى السودان . . ولتكون إيطاليا حاجزا بين نفوذه فى الداخل ولتحول دون وصوله الى الساحل .



وفى سنة ١٨٨٦ ظهرت فى الدوائر الاستعمارية الإيطالية حركة جديدة تهدف الى السيطرة على تجارة هرر لإيطاليا . . بل ذهب الاستعماريون أبعد من ذلك حين رغبوا فى السيطرة على هرر ذاتها . . وكان للتجارة الإيطالية أثر كبير فى إبراز فكرة استخدام هرر التى كانت فى أيد غير إيطالية للأغراض الإيطالية وعلى رأس هؤلاء امبرتوروما جينولى الذى رأى الاستيلاء على هرر فى زحف خاطف .

وقد أعدت بعثة برياسة بورو وأرسلت الى افريقيا من ميلانو . . وكان غرضها انشاء مراكز تجارية فى هرر أولا وقد حذر الانجليز من الظهور بمظهر حربي وحثوه على الظهور بمظهر الهدوء والحذر . ولكن حينما وصلت الحملة التجارية هذه الى زيلع كان لها مظهر حملة عسكرية أكثر منها تجاريا . . فقد كان رئيسها بورو ومرافقوه مسلحين تسليحا قويا للوقوف فى وجه أمير هرر .

قامت البعثة من زيلع فى مارس ١٨٨٦ قاصدة هرر . . وحينما ظهروا فى ضواحي المدينة أرسل الأمير اليهم رسالة يخبرهم فيها أن يعودوا الى الساحل لأن مظهرهم الحربى أثار تأثرته وشككه فى حقيقة نواياهم التجارية . . . وكان جوابهم بأنهم رجال مسالمون ولهم رغبة فى تقديم هدايا للأمير . . ولكنه رفضها وعاد فحذرهم من اجتياز الحدود وذلك بصفتهم قوات عسكرية جاءت لتنزع منه السيادة على هرر .

عزم الأمير على مقاومة هذه البعثة والقضاء عليها بأية وسيلة ورأى أفضل طريقة لذلك تخريب مدينة جلديسا . . حيث تقترب البعثة ، وذلك لمنعها من الوصول الى هرر . وقد قامت قواته بمحاصرة المكان وحينما

اقتربت البعثة من جلديسا زحفت قوات الامير للقائها .. واصطدمت بها
عند المنابع الحارة في آرتو وقتلتهم عن آخرهم

وفي أثناء هذه المعركة .. كان الأمير عبد الله موجودا في جلديسا
التي خربت تماما وقد أراد عبد الله ألا يكون مسئولا عن مقتل البعثة
الاطالية فنسب اليها الأسباب التي أدت الى هلاكها ..

* * *

لم يكن القضاء على بعثة بورو قضاء على أطماع ايطاليا في هرر ..
فقد كانت رغبتها شديدة في تأسيس مستعمرات زراعية ومصانع في
هرر ، ذلك الى جانب استغلالها كمركز تجارى هام .. وكانت ايطاليا
تدرك مدى خصوبة هرر وصلاحيتها كمستعمرة زراعية تنتج الأقطان
وقصب السكر والبن .. ويكفى ارسال آلات زراعية قليلة الى جانب العدد
الضخم من رموس الماشية لتحقيق نجاح عظيم .

اعتمدت ايطاليا في هذه المرة على الأمير مينيلك .. واستغلت الخلاف
الناشب بينه وبين يوحنا الجالس على عرش الحبشة لتحقيق نجاح في
سياستها تجاه هرر . وكان يوحنا حريصا في ذلك الوقت على استمالة
مينيلك ليحول بينه وبين عقده معاهدة تحالف مع ايطاليا ضد الحبشة ..
وحتى ذلك الحين .. لم يكن مينيلك قد عقد حلفا سياسيا أو معاهدة مع
ايطاليا .. ولكنه أبدى تجاهها نوايا طيبة .. فأحسن معاملة الايطاليين
وأيد استعمار ايطاليا لهرر .

والحقيقة أن موقف الحبشة بالنسبة لايطاليا كان يشوبه سوء ،
لأنها دخلت في ميدان التنافس معها برغم الضمانات والوعود التي بذلتها
انجلترا للحبشة في يوم من الأيام .

ولنرجع قليلا الى الوراء في ذلك الوقت الذي استطاع فيه الامبراطور
يؤانس السادس أن يوطد سلطانه في داخل الحبشة بتغلبه على منافسيه
في الحكم ثم تأمين بلاده من الخارج بهزيمته للقوات المصرية التي هددته
من الشمال .. ففي ذلك الوقت ظهرت انجلترا في الميدان لتحاول ابتلاع
أملاك مصر وتدفع عنها أخطار قوات المهدي التي كانت تسير من نصر الى
نصر .. رأت بريطانيا أن تحصل على معاونة يؤانس في هذا السبيل .

وفي يونيو ١٨٨٤ .. عقدت انجلترا مع يؤانس معاهدة اتفقت فيها
معه على تسهيل مهمة انسحاب القوات المصرية . ثم على ضمان حرية نقل
التجارة عن طريق مصوع والحبشة وبالعكس ، وكانت هذه التجارة تحت
الحماية الانجليزية .

أوفى يوانس بتعهداته تماما . . . وقدم مساعدات واضحة الى انجلترا
فى وقت شديد الحرج . . . وتمكن قائد يوانس الرأس الوا من حماية هذه
المناطق من قوات المهدي فحال دون وقوع أميديب وكيرن والجدين فى
أيديها .

ونجد الموقف فى ١٨٨٥ كما يلى . . . انجلترا بفضل تحالفها مع
يوانس حصلت على مساعدات قيمة منه ، ولكن انجلترا لم تنفذ معاهدتها
معه بنفس الروح التى نفذها يوانس . . . ومن ذلك أن دعوة بريطانيا لاطاليا
لاحتلال مصوع كانت دعوة تشوبها روح عدم الود بالنسبة لحليفها
الخبشة .

وقد يقال ان تحريض انجلترا لاطاليا على التوسع على حساب
الخبشة فى مصوع لا يتعارض مع نصوص الاتفاقية المبرمة بينهما . . . ولكنه
فى مجموعه عمل غير ودى بالنسبة للخبشة . . . لأن التوسع بالنسبة
لايطاليا سيكون على حساب الخبشة . . . ولم يكن يوانس ينتظر من انجلترا
أن تحرض ايطاليا وتؤيدها فى تهديد مصلحة الخبشة فى الوقت الذى
كان يوانس يوفى بتعهداته للانجليز . . . خصوصا وأن مصوع التى شجعت
انجلترا ايطاليا على ابتلاعها . . . كانت فى نظر يوانس أرضا خبشية .
احتج يوانس على احتلال ايطاليا مصوع . . . لكن دون جدوى . . . فضلا
عن ذلك فان هذا الاحتلال أدى الى نقض الشرط الأول فى تلك المعاهدة . . .
كانت انجلترا قد وافقت على حرية نقل المتاجر بين مصوع والخبشة بما فى
ذلك الأسلحة والذخائر . . . وبعد سنوات قلائل من احتلال ايطاليا لمصوع
. . . كانت التجارة المنقولة قاصرة على الأسلحة التى أرسلها الايطاليون الى
مينيلك ملك شوا وعدو يوانس . . . ولا شك أن تحول المسألة وتطورها
الى عملية نقل أسلحة الى منافس يوانس . . . تعتبر نقضا لروح المعاهدة .



هذا العمل الذى قامت به انجلترا وايطاليا فى مصوع . . . كان مفاجأة
غير سارة للملك الحبشى ، ولكن كان عليه أن يتلقى أمورا كثيرة أكثر دهشة
وأكثر سوءا . . . أدرك يوانس أن محور السياسة التى تتبعها الدول الأوروبية
وخاصة انجلترا فى سبيل تحقيق الأهداف الاستعمارية . . . هو أن الحاجة
لا تعرف القانون . . . فلكى ترضى انجلترا ايطاليا وتقوى مركزها أمام
فرنسا . . . أباحت لها التوسع فى الخبشة .

ولم تضع ايطاليا الوقت بل أسرع فى تنفيذ هذا التوسع . . .
فاحتلت بعض المواقع على ساحل البحر عام ١٨٨٦ ثم بدأت تتقدم فى
الداخل . . . أحيانا بقوات مسلحة . . . وأحيانا بتوسع تجارى أو فى
شكل بعثات علمية .

وحدث في عام ١٨٨٧ أن الكونت مالبينو أحد قواد هذه الحملات العلمية التجارية أخذ أسيرا لدى الرأس ألوا وهو على الحدود الحبشية وعلى بعد خمسين ميلا من مصوع . . وقد أخبر الرأس ألوا من الحكومة الإيطالية بأن الاحتلال الإيطالي سيقصر على مصوع فقط ولن يتوغل في الداخل . . ولكن الطلب رفض . . وسرعان ما قامت الحرب بين حليفتي بريطانيا - الحبشة وإيطاليا - وتقدمت إحدى القوات الإيطالية إلى حدود الرأس ألوا ولكن قوات ألوا استطاعت أن تهزم الإيطاليين في دوجالي في ١٨٨٧ وإزاء ذلك اضطر الإيطاليون للانسحاب إلى مصوع .

على الرغم من انتصارات قوات يوانس على إيطاليا . . فإنه قد أحاطت بها مصاعب كثيرة . . إذ كان الدراويش يهددون الحبشة من الغرب . . وكان مينيلك بمعاونة الإيطاليين يناوئهم من الجنوب . . وفي الشرق حرضت إيطاليا القبائل على الثورة وفي الشمال انتظر الإيطاليون الامدادات والأسلحة للتوغل في الحبشة .

وكان الحليف الرسمي ليوانس هو إنجلترا . . لكن هذا الحليف لم يكن حليفا صادقا . . لأن إنجلترا راجت مصلحتها ومصلحة إيطاليا على حساب الحبشة . . ولم يكن الرأي العام الانجليزي يعرف آنذاك حقيقة الموقف فقد جرت السياسة الانجليزية سرا . . وأذاع الانجليز أن الأحباش يرتكبون أعمالا وحشية . . وأن صحت هذه كلها فإن الخيانة والخداع التي ارتكبتها السياسة الأوربية في الحبشة لا تقل أبدا عن هذه الأعمال الوحشية .

وفضلا عن ذلك فإن معاهدة أوتشالي سنة ١٨٨٩ بين مينيلك وإيطاليا قضت بأن يتعهد مينيلك بمساعدة إيطاليا في الاستيلاء على بعض المناطق في الداخل وذلك نظير مساعدة إيطاليا ضد يوانس . . وطبقا لهذه المعاهدة احتلت إيطاليا عدة مقاطعات من الحدود الحبشية لكن إيطاليا لم تلبث أن نقضت معاهدتها باستيلائها على عدوة ولم تكن هذه المدينة ضمن الاتفاقية بين إيطاليا ومينيلك .

أما بالنسبة لهرر فقد كانت سياسة كل من فرنسا وإنجلترا هي الاهتمام بالتجارة مع الحبشة وهرر برغم سياسة الأمير عبد الله المعادية لنشاط الأجانب ، وقد تظاهرت كل من الدولتين بقبول هذا الوضع المؤقت لكن رغبتها لإعادة التجارة بين موانئ الساحل وبين هرر كانت رغبة ملحة . . ودخلت إيطاليا في هذا الميدان وهي صاحبة الاطماع المعروفة في الحبشة والصومال وهرر ، وقد أيدت إنجلترا سياستها في أثيوبيا وكانت إيطاليا تقدم الأسلحة لأعداء يوانس ومنهم عبد الله أمير هرر .

حينئذ شعرت فرنسا بالخطر الذي يهدد مستقبلها وزاد اهتمامها بمسألة الصومال وهرر وتجارتها . وقد زاد اهتمام فرنسا بهرر وخاصة بعد استيلائها على ميناء جيبوتي ، كانت جيبوتي مرزا صالحا لتوسع الاقتصادى مع هرر لكن قيمة جيبوتي من هذه الناحية تعتمد على حالة المنطقة التى تقع حدها إذا استولت انجلترا وإيطاليا أو صديقتها مينيلك على هرر والصومال على الأراضى فى الداخل ، فقدت جيبوتي أهميتها .

عندئذ اقترحت فرنسا على انجلترا أن تتعهدا معا بعدم احتلال هرر والصومال وبمنع إيطاليا من احتلالها . ووجد لورد سالسبورى رئيس الوزارة البريطانية نفسه فى موقف حرج كانت انجلترا تحرص دون شك على أن تبعد فرنسا من هرر وفى نفس الوقت تخشى بعض الشيء من امتداد النفوذ الإيطالى هناك لكن ارتباط انجلترا مع إيطاليا جعل من المتعذر عليها أن تفعل فى وجه المطامع الإيطالية فى هرر .

وانقاذا لهذا الحرج قرر سالسبورى أن يجد لنفسه مخرجا فعقد اتفاقا سريا مع فرنسا يمكن أن يفسر على وجهين - أى يشوبه الغموض - فى فبراير ١٨٨٨ ونص الاتفاق على أن تتعهد انجلترا بعدم محاولة ضم هرر والصومال أو وضعهما تحت الحماية .

وقال الاتفاق أن هذا التعهد لا يمنع الدولتين من معارضة أطماع أية دولة أخرى فى هرر والصومال ويلاحظ فى هذا الاتفاق أن انجلترا قد ألزمت فرنسا بعدم احتلال هرر والصومال كما التزمت هى نفسها بذلك وفى نفس الوقت رفضت انجلترا التعهد بالوقوف أمام مطامع إيطاليا فى هرر والصومال لأنها كانت تؤيد رغبتها فى التوسع كما كانت تنظر الى أن مستقبل إيطاليا هو فى الحبشة .

ومن الملاحظ أن الاتفاق لم ينص على معارضة أطماع أية دولة أخرى فى هرر والصومال وإن كان قد أشار الى أنه لا يمنع انجلترا وفرنسا من المعارضة .



الفصل الثالث في الحركة ضد الاستعمار

فيما سبق ألقينا الضوء على تطورات السياسة الاستعمارية الأوروبية في منطقة شرق إفريقيا ونصيب الصومال من هذه السياسة . . . لقد تأمرت عليه أربع دول . . . اغتصبت كل منها قطاعا من قطاعاته فتفتت هذا القطر العربي الذي حمل لواء العروبة وكافح في سبيل الحفاظ عليها في شكلها وتقاليدها ودينها منذ تبلورت العناصر العربية في شكل امارات مقديشيو وهرر وزيلع وكان لها في تاريخ هذه المنطقة شأن كبير .

وكان لاقتسام الصومال وتفتيته الى مناطق نفوذ بين الدول الاستعمارية وقع شديد الأثر في نفس الوطنيين الذين عز عليهم أن يصبح يلودهم فريسة ينهشها الطامعون . . . ولم يمض على زوال عصر الادارة المصرية الذهبى سوى أعوام قليلة . . . تمتعت البلاد خلاله بكل ما تأمل في تحقيقه من أسباب العز والرفاهية . . . ثم تجيء هذه النكسة السريعة لتطيح بآمال المواطنين في مواصلة أيام المجد والازدهار وليصبح الصومال الواحد صومالا فرنسيا . . . وصومالا بريطانيا . . . وصومالا ايطاليا . . . وصومالا حبشيا .

ودخل الاستعمار بوسائله المختلفة التي تضعف مقاومة الشعوب ضد استمراره في التحكم بسياسة بث الفرقة . . . واحتضان فئة من المواطنين واغرائها بالمال والنفوذ لتكون سيفا على باقى أفراد الشعب ونشر العادات الذميمة لتمكين الانحلال من النفوس . . . وكل ما من شأنه اشاعة القوضى والاضطراب .



هذا هو الوضع الذي أصبحت عليه بلاد الصومال بعد أن دنستها أقدام الاستعمار وكانت هذه الحالة تشغل تفكير محمد بن عبد الله حسن وتملك عليه كل وقته ، وقد رأى أنه لا سبيل الى المقاومة الا بثوعية

الشعب الصومالي لما يراد به من سوء ، وتعبئته لمحاربة الاستعمار ومشاريعه ، وكشف محاولات أنصاره وأذنا به من الخونة لاضعاف الجبهة الداخلية .

بدأت حركة الكفاح التي حمل لواءها مهدي الصومال بحملة واسعة. كان على رأسها يساعده فيها نفر من أتباعه المخلصين قاموا بحمل وجهة نظره الى أفراد الشعب في الأحداث التي تحيط بهم ورأى الدين العاطم في خيانة الوطن والتهاون مع أعداء البلاد ، وكان أسلوب مهدي الصومال بالغ الروعة قوى التأثير بفضل دراساته السابقة في القرآن والفقه والحديث والتاريخ وتمكنه منها طوال الأعوام التي قضاها دارسا ومتفقا . . . وذلك الى جانب شخصيته القوية التي أضفت على قوة منطقه وبلاغته واقناعه الشيء الكثير .



كان أول هدف من أهداف رسالته التحررية ومطاربته للقوى الاستعمارية هو تأمينه لجبهته الداخلية ليضمن وحدة المقاومة وعدم تسلل الخيانة الى الصفوف ، فكانت حربه على الخونة المتلاعبين بمستقبل بلادهم ، وقد انصبت خطبه الحماسية على موقف هؤلاء الذين يحدثون أنفسهم بالتعاون مع المستعمر عدو البلاد تحت مغريات المال والجاه من الاقدام على هذا العمل الخطير . . . فالمال والجاه الى زوال وتبقى بعد ذلك السيرة التي ستحاسب حسابا عسيرا .

وقد صادفت الدعوة التي قام بها محمد بن عبد الله حسن صدى عميقا في نفوس مواطنيه الصوماليين اذ أنسوا الى زعامته فانضوا تحت لوائه وقد أعجبهم منطقه وسياسته وآمنوا بصدق دعوته وجديته كفاحه . وقد أمد هذا التأييد مهدي الصومال قوة وصلابة واصرارا على انتزاع حقوق مواطنيه واستقلالهم وحريتهم من دول الاستعمار الأربع التي اقتسمت بلاده .



ومن الأعمال التي أقدم عليها الاستعمار في مطلع عهده ببلاد الصومال هو ارساله جيوش المبشرين الى هذه البلاد لتقوم بحربها على العقائد ولتهيء النفوس للسكينة والاستسلام . . . والرضا بالأمر الواقع . وانتشر هؤلاء المبشرون في كل مكان لتحقيق أهداف الاستعمار وبدأ خطر دعوتهم يظهر في الأفق ليهدد العادات والتقاليد الاسلامية العربية العريقة .

فرع الملا محمد بن عبد الله حسن لهذه الظاهرة الخطيرة فهب

ليدافع عن كيان مواطنيه وحرمة دينه وحرية بلاده . . . وليمنع انتشار هذه الحملات في أرض الصومال ووقف نشاطها فوراً . . . وانتهاز فرصة قدوم بعثة جديدة عام ١٨٩٧ ليتصل برجال الادارة الاستعمارية البريطانية ليعلن عن رأيه ورأى مواطنيه في ضرورة اقضاء رجال هذه البعثات فوراً وعدم تمكينهم من أداء مهمتهم التي تشكل خطراً عظيماً على الدين الاسلامي دين الغالبية العظمى في الصومال وتعرض عقيداتهم السمحة للمسح والتحريف .

وأراد الاستعمار البريطاني العيث بعقول الصوماليين عن طريق وعود زائفة بجلاء بعثات التبشير ، لكن الوطنيين وعلى رأسهم الملا راقبوا تنفيذ هذا الوعد بدقة ولما رأوا التلاعب واضحا والنية السيئة هي الطابع الغالب ضموا هذا العامل الى أسباب نفورهم لقتال المستعمر واعلان الجهاد المقدس ضده . ويصف الملا هذه المرحلة من مراحل الكفاح فيقول : « فشرعت في استعداد سريع سرى من جهة ، وخطب ومواعظ مؤثرة من جهة أخرى ، وكنت أدعو القبائل الصومالية للتحرر من انكسار والتكاسل الى اليقين والعمل ومن التخالف والتخاذل الى التعاون والتكاتف ومن الخوف والهلع الى الجرأة والاقدام ، ومن الاستسلام والذلة الى الاستبسال والعزة ، فاجتمع لدى عدد كبير من القبائل الصومالية والتفوا حولي وغرست في نفوسهم محبة دينهم ووطنهم ، وبغض عدوهم من الكافرين ومن يساندوهم ، وانطبعت معاني الآيات القرآنية في نفوسهم وفهموا المقصد منها وتعاهدوا على الجهاد والدفاع عن الدين والوطن والشرف ، وأخذوا في الاستعداد بالرماح والسيوف والبنادق القليلة .



لم يملك مهدي الصومال أمام هذا العدوان السافر على وطنه الا أن يتخذ لنفسه طريق الجهاد والتضحية لاستخلاص حقوق مواطنيه واعادة الوحدة الى بلاده ، وطرد المستعمر وجمع شمل أبناء الصومال تحت راية متحدة ، وقد أعلن للجميع سياسته التي أفصح عنها بقوله : « نحن قوم قاموا بالعزم والايمان وعقدوا نيتهم ليدافعوا عن دينهم وشرفهم الى آخر قطرة من دمائهم . . . نحن قوم نكافح لنظهر جميع أنحاء بلاد الصومال من الأعداء المستعمرين لأننا نعلم تماماً أنه لا يمكن لنا أن نعبد الله في أرضنا آمنين مطمئنين ولا أن نقيم أحكام كتابه . . . ولا أن نستثمر خيراتها ولا أن نستنشق نسيم الحرية فيها الا بعد تحقيق الفرض المذكور ، ونحن قوم حاصرتهم الكفار والمنافقون من جميع الجهات وأحاطتهم كاحاطة الهالة للقمر ، وقطعت عنهم جميع المواصلات والامدادات الحربية والغذائية»



بدأ مهدي الصومال معركته برسم خطة لكفاح طويل المدى ضد الاستعمار يضمن بها استمراره في القتال وقد ضمن الموارد التي تدعم مركزه من رجال مقاتلين وعتاد حربي وذخيرة تم بهما تموين قواته وخاصة أن معظم الرجال سيحملون السلاح ويتركون الحقول .

جمع مهدي الصومال حوله الصفوة المخلصة من أبناء القبائل المواليين له ، وجعل منهم فرسان الطليعة وبعث برسله الى المدن والقرى يحملون أعلام الحرب ويستنفرون الناس لقتال عدو بلادهم ودينهم ويوضحون أنهم بصدد منازلة منافس قوى الامكانيات ، ومن هؤلاء الذين جمعهم برسله كون فريق المشاة والمقاتلين واستمرت حملة الدعوة الى التطوع طوال فترة الحرب ، وشهدت بريقتها في السنوات العشر الأولى منها .

ثم يأتي بعد ذلك دور امداد القوات بالعتاد والذخيرة ، وكانت هذه مهمة صعبة ، وخاصة بعد أن بدأ الاشتباك الفعلي بين القوات الصومالية والقوات البريطانية ، وقد نجح مهدي الصومال في تهريب الأسلحة من المناطق التي يسيطر عليها الفرنسيون والاطاليون ، الى جانب ما كان موجودا بالمخازن من أسلحة الجيش المصري الذي خرج من هذه البلاد منذ وقت قريب ، وقد بنى عددا من المخازن في مغارات الجبال لتكون مستودعات لهذه الذخيرة .

لم يهمل ابن عبد الله الحسن موضوع بناء استحكامات عسكرية في عدة مراكز لحماية قواته في حالات الكر والفر فبنى في داخل البلاد أربعة حصون ضخمة قوية أودع فيها كميات كبيرة من السلاح والعتاد الحربي والمؤن . وكانت هذه الحصون موزعة باحكام في أماكن استراتيجية كما أقام في عديد من الأماكن الخنادق والمتاريس لتقف في وجه هجمات العدو كما أقام عدة صهاريج لحفظ المياه وحفر الآبار في بقاع مختلفة من أرض المعركة ، وفي داخل الأوجادين أنشأ عددا من القلاع والحصون لمثل هذا الغرض .

وفي ميدان الامدادات والتموين .. أمر القائمين على الأراضي الزراعية من ملاك ومزارعين بمراعاة الظروف التي تمر بها البلاد من احتياج لسواعد قوية للقتال مما سينجم عنه نقص في الايدي العاملة في الحقول .. وضرورة مضاعفة الانتاج برغم ذلك لسد حاجة المقاتلين وتوفير وصول المؤن اليهم .

وقد رأى مهدي الصومال بعد أن اكتملت له عناصر النجاح أن يبدأ قتاله بتلقين نفر من أهل الصومال الذين لم ينضوا تحت لوائه .. وآثروا مهادنة العدو درسا في الوطنية فقام بشن هجوم على أتباع الطريقة القادرية في بلدة الشيخ وأبادهم عن آخرهم .

هذه الاستعدادات وهذه الحملة على معارضى الملا فى الداخل نبهت السلطات البريطانية الى الخطر الذى يكمن وراء تحركات ثائر الصومال . . فرأت أن تقوم بهجوم مفاجئ على قواته لتبيدها فى مهدها . . فقامت بغزوة سريعة على أحد القبائل الهامة التى تساعد . . كما أوعزت الى القوات الحبشية بالقيام بهجوم على مناطق الثوار المتاخمة لحدودها ولكن هذين الهجومين لقيتا مصيرهما من الفشل التام .

ومرت سنوات . والملا ينتظر اللحظة المناسبة للدخول مع قوات الاحتلال فى معركة تقرير المصير وكان الاستعداد والحماسة قد بلغا ذروتها . . وجميع المقاتلين فى شوق بالغ للقاء العدو وقتاله حتى تستأصل شأفته . . وبدأ الملا فى نفس الوقت توزيع قواته حيث معاقل الانجليز . . وحدثت بينه وبينهم مناقشات مبدئية لتخرج قواته منها مظفرة وأعقب هذا عملية الحرب النظامية ضد قوات الاستعمار البريطانى ليحرز جنوده عدة انتصارات باهرة .

وفى الفترة ما بين ١٩٠٠ و ١٩٠٤ - أرسل الانجليز أربع حملات مجهزة تجهيزا قويا لقتال مهدي الصومال ولكنه تمكن من قهر هذه الواحدة تلو الأخرى . . وارتفع رقم قتلى الجيش البريطانى الى مبلغ كبير . ومن المعروف أن خطة القائد الصومالى كانت تتلخص فى مهاجمة فرسانه المخلصين لقوات الانجليز الأصيلة ، ثم تصدى مشاته للقوات التابعة للجيش البريطانى من مناطق المستعمرات المختلفة . . وكان فرسان مهدي الصومال لأبناء بريطانيا الخالص بالمرصاد لمعرفة ان القتل منهم يساوى فى نظر الاستعمار البريطانى مئات القتلى من الجنود التوابع . وقد نجحت هذه الخطة أيضا فيما هدفت اليه من ازعاج الرأى العام البريطانى على نتيجة الحرب الخاسرة التى أقدمت عليها حكومته فى الصومال .

بعد أن فشلت بريطانيا فى هذه المرحلة من مراحل حربها مع قوات مهدي الصومال ولم تسفر حملاتها الأربع عن نتيجة حاسمة ترضى الاستعمار البريطانى أقلها كسر شوكلته ان لم يكن القضاء عليه وعلى حركته الثورية . . رأت الاستعانة بزميلتيها الاستعماريتين اللتين اقتسمتا معها الصومال وهما فرنسا وإيطاليا .

فبالنسبة لفرنسا رأت بريطانيا أن تبرم معها اتفاقا يقضى بمحاربة تسرب الأسلحة من ميناء جيبوتى الذى تسيطر عليه . . الى قوات مهدي الصومال لأن فى هذا العمل نقضا لاتفاقيات الود التى سبق أن عقدت بين الطرفين . . كما أن فى ذلك العمل ما يساعد ثائر الصومال ورجالهم على الاستمرار فى حربهم وقد وجدوا الذخيرة والعتاد . . وبرغم اتفاق

الحكومتين الفرنسية والانجليزية على هذا الأمر . . . الا أنه لم ينفذ وكانت الاسلحة تصل بانتظام الى القوات الصومالية لان جيش فرنسا الموجود بالصومال لم يأت ليحارب وهو مقتنع بمنطق أو محقق لهدف . . . ومن ثم لم يكن يهتم الا الحصول على المال ولو كان في هذا اخلال بما سبق الاتفاق عليه .

أما إيطاليا . . . الدولة الجديدة على ميدان الاستعمار . . . والتي دخلته في شاطئ إفريقيا الشرقي كمحاولة للحاق بالركب وعدم التخلف عن سياسة أوربا وطابعها الاستعماري . . . فانها كانت ترى في بريطانيا زميلا محتملا . . . يجيد الأساليب الاستعمارية ومناوراتها ورأت ما أصاب هذه الدولة من ضربات قاصمة على أيدي قوات المهدي الصومالي . . . وكانت في قطاعها تتوجس خيفة من امتداد الحركة الثورية الصومالية الى القطاع الذي آل اليها . . . فرأت أن تسهم مع شريكها الاستعمار البريطاني في القضاء على ثورة ابن عبد الله حسن . . . وكانت بريطانيا في هذه الآونة في أمس الحاجة الى معونة القوات الإيطالية بعد أن أصاب الثوار قواتها بخسائر جسيمة .

وكان الاتفاق بين كل من بريطانيا وإيطاليا يقضي بأن تتبع المناطق التي يسيطر عليها ثوار الصومال السلطات الإيطالية وذلك حتى يوضع عداء مهدي الصومال للقوات البريطانية عند خد وتخف وطأة المقاومة على ضوء هذا الوضع الجديد . . . لكن ابن عبد الله حسن واصل شن هجماته لأن الاستعمار في نظره كل لا جزء وسواء وجد في منطقة يريد الاستعمار البريطاني فرض سيطرته عليها أو الاستعمار الإيطالي . . . فان هذا لن يغير من أسلوب الكفاح والنضال حتى يستخلص الحرية والسيادة لمواطنيه . . . وهكذا لم تفلح الحيلة الجديدة في تحويله عن عزمه واثباته عن إرادته .

أما الأحباش . . . فكان لهم دورهم في مناقشات دائمة لقوات مهدي الصومال التي تقارب حدود الحبشة وكان اللقاء بين الفريقين يسفر دوما عن هزيمة ماحقة للأحباش .



لم يترك الاستعمار وسيلة لمحاربة مهدي الصومال الا وطرقتها . . . وحتى يكمل هذه الوسائل . . . كانت خطته في تحطيم شخصيته . . . وإزالة زعامته من النفوس . . . فكانت حرب الدعاية المغرضة حول شخصه وأهدافه وسياسته . . . وقد وجد الاستعمار في هذا المجال فرصة لاثارة منافسيه من زعماء القبائل الذين تقلصت سلطاتهم نتيجة لحركة الملا . . . فأخذ يروج الشائعات بينهم عن نواياه في تنصيب نفسه ملكا على الصومال . . .

وأن كفاحه لا هدف له الا الوصول الى هذا الغرض .. وذلك حتى يوغر صدورهم ويقلبهم عليه . ومن اشاعة أخرى عن قسوته وجبروته وشدة بطشه بمنافسيه لو آلت اليه مقاليد الأمور في النهاية .. والعاقبة الوخيمة التي ينتظرها المواطنون على يديه في هذه الحالة . كذلك روج الاستعمار وأذنا به من التهجمات على قيمه الدينية وتصرفاته الشخصية كرجل دين .

هذه التخرسات تفتتت عند اقدام مهدي الصومال ، فقد كانت أعماله وكان سلوكه يقول بغير هذا الذي أطلقه الاستعمار ، وكان واضحا أنه افتراء على الحق وتزييف للواقع وربما كان له أثره في أول الأمر لبلبلة الأفكار عن حقيقته .. ولكن ما لبث أن انكشفت الأمور على حقيقتها في النهاية وخرج ابن عبد الله حسن من هذه الحرب .. كما خرج من وقائع أخرى أقوى عودا وأكثر أنصارا ليواصل رسالته في سبيل طرد المستعمرين من بلاده .. وتوفير الحياة الحرة لوطنه ومواطنيه .. ودارت الحرب سجالا بينه وبين أعداء بلاده



وبرغم الخسائر التي لحقت بمهدي الصومال وقواته الا أنه استطاع أن ينزل بالقوات الانجليزية خسائر أفدح وكبدها أموالا طائلة صرفت على حملات متعددة واستعدادات للحرب وصلت في مجموعها الى أكثر من أربعة ملايين من الجنيهات .. وهو قدر ضخم اذا قيس بقلة النفقات ورخص التكاليف آنذاك .. وكان هذا الذي صرف من الخزانة البريطانية مثار أسئلة ومناقشات في مجلس العموم البريطاني الذي أثارته هذه المصروفات وقرر أن يتخذ ازاءها عملا ايجابيا وحازما يهديء من روع الشعب الذي لم ير في هذه الحروب والاشتباكات مع القوات الصومالية أية نتيجة حاسمة بعد مرور أكثر من عشر سنوات على بدايتها .

ورأى وزير المستعمرات البريطاني - وكان آنذاك - ونستون تشرشل - أن يقدم تقريرا سريعا عن رحلته التي قام بها في منطقة شرقي افريقيا وعن الحالة هناك وأوضاع القوات البريطانية وقوات الدول الاستعمارية الاخرى ، وكان ذلك في نهاية عام ١٩٠٧ . وعلى ضوء هذا التقرير الذي قتل بحثا ومناقشة .. قرر البرلمان البريطاني في مارس ١٩٠٩ تكليف سير ريجنالد ونجت حاكم السودان العام وسردار الجيش المصري بالسفر في مهمة الى الصومال ليتحقق بنفسه من الاوضاع التي وصلت اليها القوات البريطانية .. واقتراح الحلول التي يراها مناسبة لتخفيف أعباء الحكومة وثورة الرأي العام البريطاني على تصرفاتها .

ونفذ ونجت هذا الأمر .. وقام فعلا بالسفر الى بلاد الصومال يصحبه مجموعة من الخبراء الانجليز على رأسهم سير رودلف سلاطين

مفتش عام السودان وكلايتون بك وأرمبستر مدير مصلحة الجمارك
السودانية . . وهناك اجتمع بالمسؤولين الانجليز ثم طلب من مهدي
الصومال الاجتماع به لتسوية الموقف ومعرفة مطالبه وشروطه للتفاهم .

* * *

وبعد شهرين من الاتصالات والمشاورات ، بعث ونجت بتقرير الى
الحكومة البريطانية اقترح فيه عدة حلول أولها اتخاذ سياسة محددة للقضاء
على حركة الثوار الصوماليين وذلك بمشاركة القوات الفرنسية التي يجب
اقتناعها بعدم بيع أسلحة أو ذخيرة لهؤلاء الثوار .

وكانت القوات الفرنسية تبيعهم هذه الأسلحة سرا لتكسب المال
الذي تنفقه على ملذاتها فاذا فشلت الحكومة البريطانية في الوصول الى
نتيجة عن طريق هذا الحل ؛ فعليها أن تلجأ الى حل آخر هو فتح باب
المفاوضة مع مهدي الصومال وقرار السلام وتهذبة الحالة الى حد ما يمكنها
من الالتجاء الى سياسة أخرى فيما بعد .

* * *

وفضلت الحكومة البريطانية تجربة الحل الاول وهو العنف مع
المجاهدين الصوماليين واستعمال حرب الاعصاب مع قائدهم . . وبدأت
الدائرة من جديد بتهديد إرسال الجنرال كوفل القائد العام للقوات
البريطانية الى مهدي الصومال ابن عبد الله حسن جاء فيه :-

« سننسفك نسفا اذا لم ترجع عن غيك ، واذا لم تخمد ثورتك
الجنونية واعلم أن حكومة صاحبة الجلالة عظيمة جدا . . ولا يستطيع
مجنون مثلك أن ينال منها شيئا فارجع عما أنت فيه ، وعد الى صوابك
قبل أن تقع المصيبة عليك . . وتندم على أعمالك السيئة » .

وكان رد البطل الصومالي على هذا التهديد والوعيد ردا مفحما أفسد
على الانجليز حرب الاعصاب التي أرادوا الكسب من ورائها . . فقد كتب
الى القائد البريطاني يقول :

« من السيد محمد بن عبد الله حسن قائد القوات الاسلامية
الصومالية الى الجنرال كوفل قائد الشيطان : قد أطلعت على رسالتك
وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة وأغراض حكومتك الوضيعة . واعلم
أن قواتكم التي تفاخرون بها لا تساوى لدى شيئا . . وأعلمك أيضا أنكم
اذا كنتم تحاربونني بقواتكم الهائلة الكثيرة العدد فأننى أقاتلكم بنيتي
الصالحة وبايماني القوي وبعزيمتي التي لا تعرف الملل . ومهمسا تكن
الظروف لن أستسلم ولن أكون للشرك عبدا . . »

* * *

وفى ايمان وتضميم على استخلاص حقوق الصوماليين كاملة كان هذا الرد الذى انطلق قذيفة فى وجه الاستعمار وتهديدته الذى لم يتعود مثل هذه الجرأة « المتناهية » . واعتبر القائد البريطانى الجنرال كوفل هذا الرد الذى بعث به اليه مهدي الصومالى اهانة شخصية له . . . وتطاولا على قدسية الامبراطورية ولا يجب السكوت على هذا التهديد السافر والتحدى الذى يقلل من هيبة الحكومة الانجليزية . . . ومن الضرورى رد اعتبار الجميع بتأديب هذا المتمرّد فى نظره - حتى يكون رأس الذئب الطائر الذى يتخذ منه الغير العظة والعبرة .

واستصرخ الجنرال كوفل قوته فى كل مكان للقيام بهجوم شامل على المراكز التى يسيطر عليها مهدي الصومال ، وبعث الى مراكزه بندايات الحماسة واستحلفهم باسم الوطن أن يرفعوا رأسه هذه المرة بانتصار يقضى على مقومات ثورة الصومال ويرغم قائدها على الاستسلام والسجود أمام أباطرة الحرب والنزال . . . كما قرر الجنرال كوفل . . . امعانا فى جدية القتال - أن يتولى رئاسة العمليات الحربية وقيادة الجيوش بنفسه ويخوض هذه المعركة الهائلة التى حشد لها كل امكانياته من ذخيرة وسلاح ومؤن وخبرات وخيانة . . . كما حدد الميدان الرئيسى لها مدينة « تليح » لتكون فصل الخطاب .

لم يكن من السهل القضاء على ثورة مهدي الصومال الذى آلى على نفسه ألا يستسلم وألا يكون عبدا للشرك . . . وأن يقاوم بقوة ايمانه وبعزيمته التى لا تعرف اليأس جيوش الامبراطورية الكثيفة العدد ، القوية العدة ، المفتقرة الى سلاح الاستشهاد وعدالة القضية والدفاع عن أرض الوطن ، فهى تشعر فى قرارة نفسها أنها قوات معتدية آثمة . . . أتت غازية لتسلب مواطنين استقلالهم وحريتهم ، وشتان ما بين السلاحين من تناقض.

قرر ابن عبد الله حسن أن يفوت على الاستعمار البريطانى أغراضه ، ويفسد عليه خطته ويحطم آماله التى عقدتها على نصر سريع فى المعركة التى حدد زمانها ومكانها . . . فقام يحشد قواته وينظم صفوفه ويلقى فى أنصاره ومحاربيه نداءات الثار والكرامة وصبون أرض الوطن من دنس الاستعمار ، واستعد لهذه المعركة استعدادا هائلا . وفى تليح ، حيث تتجمع قوات مهدي الصومال بدأت المعركة المنتظرة قوية عنيفة ، والقوات الانجليزية بأسلحتها الحديثة الفتاكة وعددها الكبير الذى لم يسبق له أن اشتبك فى معركة واحدة الا معركة هكس فى غرب السودان فى مطلع

ثورة مهدي السودان ، وكان الطرف الثاني في القتال قوات ابن عبد الله حسن وقد استكملت كل مقومات المقاتل الصلب العنيد . . ودار القتال عدة أيام ليكثر القتلى ويرتفع عدد الشهداء . وكان قلق الحكومة البريطانية بالغاً وتلفها شديداً لمعرفة أخبارها ونتيجتها الفاصلة .



وجاءت نتيجة هذه الموقعة مخيبة لآمال الاستعمار البريطاني ، مضية عليه أهدافه ، محفزة لثوار الصومال على مواصلة كفاحهم واستبسالهم في سبيل قضية الحرية والكرامة التي يدافعون عنها . لقد انتصرت قواتهم على القوات البريطانية انتصاراً مؤزراً وأرغموها على التقهقر خائبة المسعى بعد أن قتل القائد العام الجنرال كوفل في الميدان ووطأته أقدام الصوماليين وسنابك خيولهم . . ووقع العديد من الضباط البريطانيين أسرى في أيدي قوات مهدي الصومال .

كانت أخبار هزيمة الجنرال كوفل العتيد ومصرعه وتشتيت قواته بين قتل وجريح وأسير وهارب لها وقع سيئ في الامبراطورية البريطانية عامة والحكومة في لندن خاصة . . التي أفزعها ما وصلت اليه الحالة في الصومال من تدهور بالنسبة اليها . وكثر عليها أن تنتصر عناصر افريقية مجردة من الخبرة والسلاح والتكتيك على قوات الامبراطورية ، ويفقدها هيبتها وما تتمتع به من سمعة مدوية في ميدان الحرب والنزال والاستعمار ترهب قلوب الاعداء . وخرج الشرف الافريقي من هذه المعركة مرفوع الرأس موفور الكرامة . . يروي للأجيال قصة انتصار الحق على الباطل والايمان على جحافل الظلم وليكون أسطورة يتحدث بها المواطنون في مجال الفخر ورواية الأمجاد .



كما كان لهذا الانتصار المشرف الذي أحرزه مهدي الصومال وقائده ثورته دويه الهائل في أنحاء العالم الاستعماري الذي هب مذعوراً ليرى فيه مصرع آماله وأحلامه . . وبداية للقضاء على جميع مشاريعه . وتضافر الاستعمار ليساند نفسه أمام هذه المحنة التي أحاقت به ، وأخذ يقلب مختلف الحلول للخروج من هذه الازمة . . فمن رأى بمهادنة ابن عبد الله حسن ومن رأى باستدراجه في مفاوضات تستطيع خلالها القوات البريطانية أن تعيد تجميع صفوفها استعداداً لمعركة جديدة . . ومن قائل بمواصلة استعمال العنف كرد شرف للذي حدث في هذه المعركة .

وانتصر رأى الذين اقترحوا مفاوضات الملا . . ونزل الانجليز من علينائهم ليجلسوا معه على مائدة واحدة . . وقرروا نذب الحاكم الذي

نصبوه على الصومال ليطلب من الملا قبول مبدأ المفاوضة لحل الازمة التى
تجمت عنها الحرب ، ولم يكن لهذه المشكلة فى نظره سوى حل واحد هو
الجلء من أرض الصومال . . . وبعدها تنتهى كل أزمة وتزول كل مشكلة .

* * *

وفى شهر يونيو ١٩١١ ، اجتمع ممثلو الامبراطورية مع مهدي
الصومال حول مائدة المفاوضات بالقرب من مدينة لاس عانو . . . وبدأها
رئيس الوفد البريطانى بتمثيلية تحمل معانى الود والاحترام والأخوة . .
والفاظ معسولة لا ترضى الا غرور المغرورين . . . كما قدم للملا العديد من
الهدايا القيمة التى يسيل لها لعاب المأجورين .

لكن الملا استمع الى هذه الألفاظ فلم تبهره ، ورأى هذه الهدايا
فلم يتحول ، وطلب الى الوفد عرض ما لديه من اقتراحات حسما للأمور
وضمانا لعدم تضييع الوقت ، وهكذا وضع الانجليز أمام الأمر الواقع فى
حزم واصرار لم يتمكنوا بعده من استعمال أساليب المخادعة والمماطلة فبدؤوا
يعرضون سفارتهم التى من أجلها أوفدوا اليه .

وكان طلب الحكومة البريطانية الذى حملة هؤلاء المفاوضون يتركز
فى ضرورة وقف القتال فورا ، وأن يلقي أبطال الصومال سلاحهم ، وفى
نظير ذلك تعترف حكومة صاحبة الجلالة البريطانية وحكومات الدول
الأوربية الأخرى بمهدي الصومال محمد بن عبد الله حسن ملكا متوجا على
الصومال كله . . . وقد أرادت بريطانيا أن ترضى بهذه السياسة منطق
الغرور الذى يصيب الزعماء والقادة فيتهافتون على المناصب حينما تعرض
عليهم . . . تاركين كفاحهم مهملين مطالب شعوبهم فى سبيل ارضاء
نزواتهم . . . وقد نجح هذا الأسلوب الذى اتبعته الحكومة البريطانية مع
حكام عارضوها فى أول الأمر فى الشرق العربى ، ثم ما لبثوا بعد أن عرض
عليهم الحكم والامارة والملك . . . أن صاروا خداما مخلصين للعرش
الانجليزى .

واستمع المفاوض الاستعماري لأغرب رد تلقاه فى هذه الآونة . . . وهو
رفض مهدي الصومال لهذا العرض المغرى على عكس ما كان يراه ويلمسه
فى زعماء آخرين فضلوا مصالحهم الشخصية على مصلحة وطنهم ومواطنيهم
فقد اشتتم فى عرضهم رائحة الخيانة ورأى فى أسلوبهم المكر والخداع
للتفريز به . . . فأمر رجاله بإعادة الهدايا التى بعث بها اليه نائب الملكة
فى الهند . . . مع رسالة منه بأنه لا يبيع بلاده بهذا الثمن البخس . . . ثم
وجه حديثه اللاذع الخافل بالسخرية لمنطق الاستعمار وعلاجه للأمور
بعقار واحد ، هو الرشوة والخيانة ، فقال للوفد البريطانى هذه الكلمات
التي تعد دستوراً للأمانة فى النضال والصدق فى القيادة .

« اننى لم أفكر فى يوم من الأيام أن أكون ملكا .. ولم يكن هدفى
لا فى الحاضر ولا فى المستقبل .. ولكن عدنى الوسيد هو أن أطرد
الاستعمار من بلادى .. ثم قمت ليها بحراثة انعمسية وألجرتها من التبرك
والمدنى .. ثم بعد ذلك فى أعياى الموت »

كان هذا التصريح جدا فاصلا لهذه المفاوضات ومؤذنا بانتهائها بغير
النتيجة التى أمل الاستعمار الوصول اليها .. فقد كانت صلابه مهدي
الصومال فى موقفه تجاه قضية بلاده .. لا تشييه المغريات .

استأنف الملا بن عبد الله حسن كفاحه ، واستنهض رجاله لمواصلة
النضال ضد الاستعمار البريطانى الذى قللت من هيئته الضربات المتلاحقة
التى كالحا له ثوار الصومال . وأمام هذه الخطة التزم الجيش البريطانى
خطة الدفاع ومحاولة حصار قوات المهدي فى دائرة محكمة لا تصل اليها
المؤن أو الامدادات . واستمرت سنوات الحرب طويلة ثقيلة كلما مر
عليها عام كلما زادت القوات البريطانية من قوتها ، وكلما ضعفت قوات
الملا لطول النضال وقلة الامكانيات .

ثم كانت نهاية الحرب العظمى الاولى التى خرجت فيها بريطانيا
منتصرة . فرأت أن تدعم هذا الانتصار بالقضاء على مقاومة شعب الصومال
لقواتها ونفوذها .. فاستعملت بتوسع سسلاحا جديدا فى الحرب هو
الطائرات التى ألقت قنابلها على مقاتلى الصوماليين وشنت غاراتها المتلاحقة
على رجال مهدي الصومال بصورة وحشية غادرة لتقضى على كل أمل لهم
فى الانتصار أو حتى مواصلة الكفاح .

وظلت الحرب الجديدة برغم ذلك أكثر من ثلاثة أعوام وقوات
الصومال تناضل فى سبيل حريتها ، وبطل ثورته ابن عبد الله حسن
يحشد الحشود ويجمع الفلول لمواصلة القتال حتى كان عام ١٩٢٠ حينما
أنزل المستعمار الانجليزى الهزيمة بقواته وعمل على تشتيتها بكل ما أوتى
من قوة وضراوة . وقيل ان مهدي الصومال قد جرح فى احدى هذه المعارك
الختامية واضطر للهرب الى حدود الحبشة ليعيد تنظيم صفوفه .. ولكنه
مات شهيدا متأثرا بجراحه . وكان ذلك فى العام التالى .. أى ١٩٢١ ..
بعد أن استنفد كل أساليب المقاومة والقتال والتضحية ثم الفداء .

وواصل الاستعمار غريبه لىدى الصومال حتى بعد وفاته .. إذ قرر
البحث عن جثمانه لتمثيل به ، كما فعل مع جثمان مهدي السودان الذى

جعلت ملكة بريطانيا من مجتمه منفضة لسجائرها وسجائر زوارها ،
وأعلن عن مكافآت سخيفة لمن يملكه على مكانه وفي هذه القوة فشلت جهوده
تماماً ، بل لم يستطع من أن يملكه في أي مكان ، بل لم يستطع أن يملكه في وطنه
هذا المكون من القوى لا يملك فيه أي شيء .

وبهذا يسدل الستار على أروع فصل من فصول الكفاح في بلاد
الصومال ضد قوى الاستعمار الغاشم ، حمل لواءه وتزعم حركته مهدي
الصومال محمد بن عبد الله حسن الذي وقف في ميدان القتال خمسة
وعشرين عاماً يدافع ببسالة وشجاعة عن حرية بلاده وكرامة مواطنيه .
كانت انتصاراته ترتفع الى الذروة أحياناً وتخبو أحياناً أخرى ، وتعرضت
ثورته للفتن والمؤامرات ومحاولات الخونة في الداخل ، وقوات الاستعمار
الغازية الآتية من الخارج . وواجه أساليب المهادنة والخداع ومنطق القوة
والجبروت . . وواجه كل هذا بأسلوبه الفريد الذي عجز الاستعمار عن
قهره في معركة مشرفة . . وانتظر حتى طالت مدة الكفاح وبدأ الضعف
يتسرب الى بطل الصومال بعد هذه الاغوام الخمسة والعشرين . وتكاثر
عليه الاعداء وتعرض لالوان الخيانة والفتنة التي عنى الاستعمار
بمساندتها . . بعد أن فشل في مواجهته مواجهة الرجل للرجل .

الفصل الرابع فلسفته في الكفاح

في احكام وواقعية .. اختط الملا سياسته التي جعلها منهج كفاحه وأسلوب تعامله مع مواطنيه من ناحية .. وضد الاستعمار من ناحية أخرى .. هذه السياسة شرحها في رسائل بعث بها الى أصدقائه في النضال من العلماء والقادة وأوضح فيها أموراً كثيرة تعطينا صورة صادقة عن أطوار كفاحه لانقاذ الصومال من الاستعمار الاوربي والظروف والملايسات التي أحاطت بها في الداخل وفي الخارج .

ولحسن الحظ وصلتنا بعض هذه الرسائل التي كتبها الملا كما هي .. لم يدخلها التزييف والتشويه ولم تفسدها الأهواء .. كما يحدث في أية رسالة وطنية وصلت الى أيدي الاستعمار ليطمس معالمها ويخفي حقيقتها لتظهر في غير صورتها شوهاء لا لون لها ولا وزن وقد اختفت معالمها تماماً .

وقد اختار الملا اسم « مباحث المنافقين » ليكون عنواناً لرسائله .. ولا ندرى بالضبط لماذا اختار هذا الاسم بالذات ؟ ونرجح أن المنافقين لعبوا دوراً كبيراً في عرقلة استقلال الصومال ، مما أثار في نفسية ثائر الصومال فسجلها على هذا الشكل . وفي مباحث المنافقين .. أوضح الملا حقائق ملموسة عن ثورة الصومال ضد الاستعمار الاوربي الذي طمع في اقتسام أجزاء من هذا الوطن الافريقي ، وشرح قصة كفاحه لشحذ الهمم وتكثيل القوى لمواجهة هذا العدو المشترك وما صادفه من صعاب لا يطاق الوعي وتحفيزاً للناس على القتال .. وروى المأساة التي انتهت باستعمار أربع دول لبلاده وسيطرتها عليها ومحاولاتها لتعطيم الروح المعنوية بين المواطنين .

وننشر فيما يلي هذه الرسائل التي دونها الملا كما هي دون اضافة أو تعليق .

الرسالة الاولى :

وفي رسالته الاولى في منهجه « مباحث المنافقين » شرح موقفه من أعدائه وأعداء بلاده في الداخل والخارج ، وأوضح حقيقته للرأى العام ليعلم ما يحاك ضده من مؤامرات وفتن .. فقال بعد حمد الله والصلاة على رسوله :

« نحن قوم قاموا بالعزم والايمان وعقدوا نيّتهم أن يدافعوا عن دينهم ووطنهم وشرفهم بأخر قطرة من دمهم .. يجاهدون في سبيل الله تعالى لاعلاء كلمة الاسلام الى أن يحققوا غرضهم أو يستأصلوا من فوق الارض . ونحن قوم نكافح لنظهر جميع أنحاء بلاد الصومال من الأعداء الكافرين المستعمرين لأننا نعلم تماما أنه لا يمكن لنا أن نعبد الله في أرضنا آمنين مطمئنين ، ولا أن نقيم أحكام كتابه ولا أن نستثمر خيراتها ، ولا أن نستنشق نسيم الحرية فيها ، لا بعد تحقيق الغرض المذكور . »

ونحن قوم حاصرتهم الكفار والمنافقون من جميع الجهات ، وأحاطتهم كاحاطة الهالة بالقمر والسوار للمعصم ، وقطعت عنهم جميع المواصلات والامدادات الحربية والغذائية ، ونحن قوم ملثت صدورهم من الغضب والغيظ لأجل تخاذل المسلمين وتخالفهم مع كثرتهم ، وتعاون المستعمرين وتوافقهم مع قلتهم في بلادنا .

ونحن قوم سلخهم زهطهم وباعهم شعبهم بثمن بخس من عدوهم ونحن اتفقت لآبادتنا الحكومة الانجليزية والحبشية والايطالية والفرنسية وجميع القبائل الصومالية التي اقتسمت لرعوية تلك الدول باختيارها وطوعها يقودها سلاطينها وزعمائها وتحرضها علماءها على حربنا .

ونحن قوم لا يخضعون لأعداء دينهم ووطنهم ولو كثرت جنودهم وتتابعت هجماتهم وتنوعت آلاتهم المهلكات واشتدت وطأتهم علينا وانضمت الى صفوفهم أكثرية الوطنية الصومالية وآخرون من المستخدمين الأجانب . لأننا نريد ونحب بأموالنا وأنفسنا الجنة من الله تعالى وأن نظهر بتضحيتنا في الجهاد وصدق ايماننا واسلامنا .

ونحن قوم لا نسمح للكفار أن يحتلوا بلادنا أو يحكموها ولا نتكاتف على ذلك مع المستعمرين لا بعوض ولا بتهديد .. ولا نذل قوانين الشريعة وأحكامها ولا نجعلها خاضعة لقوانين الكفرة وأحكامها الطاغوتية بل نعان حربنا على الزعماء وعلى الذين يسمحون لهم بدخول بلادنا واستعمارها .. ونوجه لومنا للعلماء والقضاة الذين يهينون شريعتنا الاسلامية ويجعلونها تحت أقدام الكفرة الفجرة .

تلك أحوالنا التي سألتنا عنها .. أما عن أحوالنا مع أكثرية القبائل

الصومالية التي تتجاوب معها فيدل أيها الشيخ أنه لما أزمعت في أوائل القرن الرابع عشر الهجري بعض الدول أن تستعمر بلادنا وهي الدول الانجيزيه والايطالية والفرنسية والحبشية .. واتجهت أفكارها الى ذلك ودخلت الاولى الى البلاد من ميناء بربرة بمكاتبة الاهالي والثانية من مقدشيو والثالثة من جيبوتي بتلك الصفة .. والرابعة بالقوة حينما فتحها مينيليك في ١٣٠٥ هجرية من يدى حاكمها الصومالى الامير عبد الله اتفقت عند ذلك تلك الدول الاربع الا تتصادم فى استعمار البلاد الجديدة وتكاثبت مكاتبات سرية يجهلها جميع المواطنين ، وتجعل لكل دولة من الدول الاربع قسما فى بلادنا بتلك المكاتبات السرية .. ولكنها لم تخطط حدودا فى البلاد كما لم تفتح فيها طرقا ، لانه قبل تحقيق ذلك الحلم أعلننا عليها جهادنا فكان حاجزا بينها وبين ذلك ، ولن يكون لها ان شاء الله تحقيق أمانيتها وتخطيط حدود أرضية فى بلادنا مادامنا على قيد الحياة ولن تنغصمها شيئا الخطوط المكتوبة فى الأوراق .. ثم ان الدولة المذكورة بدأت تبذل أموال تافهة لزعماء القبائل ورؤساء العشائر لتشترى منهم دينهم ووطنهم وعزهم بتلك الدريهمات .

وكان الزعماء لا يفهمون مرارة الاسترقاق والاستعمار ولا يدركون ما سيحصل لهم ولشعوبهم من الذل والخزى والهوان من بعد ما خلا الجو ممن يعارضون تلك الدول .. ولا يلتفتون الى أن تلك الدول تريد استثمار بلادهم واستئثار خيراتها دونهم .. ولا تريد أن تجرى خيرات بلادها الى هؤلاء الجهلاء والأغبياء ولا يفهم هؤلاء الأغبياء أن المرتبات والمشاهرات كمثل ما يعطى للطير والحيتان لاصطيادها .

ومن جهة أخرى فتح المبشرون مدارس فى البلاد ليغيروا دين الشعب يدينهم .. فقدم الآباء أولادهم الى تلك المدارس المضللة لعقول الاطفال والتي تنشئهم نشأة غير اسلامية . ونشأ أيضا فى المدن التى سكنتها تلك الدول الاربع شرب المسكرات والمخدرات ، وفتحت العاهرات أبوابهن دون خجل ولا وجل . فلما علمت ورأيت ذلك ثارت فى نفسى شدة الغيرة الاسلامية واشتعلت فى قلبى الجذوة الوطنية والتهبت روحى غضبا وكادت تخرج من الهيكل الجثمانى .. فبدأت أخطب فى المسجد والمحافل .. وألقى بين الامة خطبا حماسية دينية .. واتلو الآيات الواردة فى الوعد والوعيد والأمر والنهى لكى أنبه الشعب قبل أن ينتشر الرباء فى جميع البلاد .. ويستولى العدو على جميع أنحائها .. ولم أزل أخطر الشعب وأناديه ولكن لا حياة لمن تنادى ولا حكمة لمن أخطره .

وقد قالوا لى لما نهيتهم عن تقديم أطفالهم للمبشرين وعن تجنيد رجالهم للعدو الغاشم : « انك تريد أن تقطع أرزاقنا وتهلكنا بالفقر

وأنجوع . فقلت لهم : ان رزقكم على الله تعالى لا على غيره . . ألم تسمعوا قوله تعالى : « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستورها ومستودعها كل في كتاب مبين » فاعادوا لي ومن اين ياتي الله برزقنا اذا أطعنا كلامك فقلت لهم ألم تسمعوا قوله تعالى « وفي السماء رزقكم وما نعدون » . .

فلما سمعت منهم مثل هذا الاحتجاج لي بأمر الرزق شرعت أرجوهم وأنهاهم عن تقديم الطاعة للكفار في كل شيء ، وعن الخضوع لأوامرهم ونواهيهم . واستدللت لهم بالآيات القرآنية التي تنهى المسلمين عن موالات الكفار فقالوا لي هذا أشد وأعجب من مسألة الرزق لأنك تعلم أن القوة في هذا الوقت للكفار وأن جميع المسلمين ضعفاء لا حول لهم ولا قوة . . واذا لم نطع الكفار ولم نقبل دعوتهم هلكننا بسبب ذلك .

فقلت لهم ألم تسمعوا قوله تعالى « فايأني فارهبون » وقوله تعالى « فلا تخشوا الناس واخشون » فلما عجزت في حملهم على قبول ذلك مني قلت لهم انكم اذا جاهدتم الكفار واستعددتهم لهم ستكونون أمة قسوية ولا تخافون اذ ذاك من رجال أمثالكم في الأعضاء الجسمية والفكرة العقلية . وقرأت عليهم الآيات الواردة في فضل المجاهدين وما أعد لهم في الآخرة . فقالوا الجهاد وقته متأخر وسنجاهد في أوان الجهاد عند خروج المهدي المنتظر فعندئذ تكون لنا العصي بصادق ومدافع وستكون آلات الكفار عصيا . . أما اذا جاهدنا الآن وليس معنا آلات حربية فلا يحصل لنا الا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة من الله . . والله سبحانه يقول « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » فقلت لهم : يا أيها الجهلاء ضللكم علماءكم عن الحقائق كلها فان معنى الآية الكريمة « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة بترك الجهاد والدفاع عن دينكم ووطنكم وأنفسكم ، وليس معناها أسلموا أوطانكم وأنفسكم الى الكفار فتتحكم فيها ما تشاء وما تريد » . وقلت لهم : ان الله تعالى قال في كتابه العزيز : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » . وقال « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » . وقال : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم أن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون » . الآية . . وقال : « يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال » . الآية : فاذا سمعتم هذه الآية وأمثالها فمن أين يأتي علماءكم بتلك الخرافات المزعومة ؟ .

ولكنهم لم يتعظوا بشيء من الآيات والاحاديث التي ذكرتها بل ازدادوا طغيانا لا عنادا ، وكانت النتيجة وشى بعضهم وسعى بعض علماءهم الخونة بين الحكومة الانجليزية وبينى بالافساد ونصح لها باعتقالى وقال لمن لم يبال كلامه ستندم الحكومة وقتلا لا تنفعها فيه الندامة . . وعلمت أن واحدا منهم يقال له (اوجاس) حصل على مشاهرة جارية بتلك النميمة . .

فعند ذلك ابتدأت من المدينة « بربرة » التي هي مركز الحكومة الانجليزية واجهت نحو القبائل البعيدة عن امدن التي فيها تلك الدول المذكورة لكي أجد من بينها رجالا يتأثرون بالمواعظ النثرانية والنصائح الإسلامية ، وكنت أوقن أنه لا تمكن مجابهة المستعمرين ومدافعهم بدون قوة ترد جماحهم وتوقف احتلالهم وأن مجرد الوعظ بدون قوة لا تفيد شيئاً .

فشرعت حينئذ في استعداد سريع سرى من جهة وخطب ومواعظ مؤثرة من جهة أخرى فكنت أدعو القبائل الصومالية من الشك وانكسل الى اليقين والعمل ، ومن التخالف والتخاذل الى التعاون والتكاتل ومن الخوف والهلع الى الجرأة والاقدام ومن الاستسلام والذلة الى الاستبسال والعزة . . فاجتمع لدى عدد كبير من القبائل الصومالية والتفوا حولى وغرست في نفوسهم محبة دينهم ووطنهم وبغض عدوهم من الكافرين ومن يساعدهم ، ونطبت معاني الآيات القرآنية في نفوسهم وفهموا المقصود منها وتعاهدوا على الجهاد والدفاع عن الدين والوطن والشرف وتحالفوا وأخذوا في الاستعداد بالرماح والسيوف والعصى والبنادق القليلة والخيول .

ولما علم المستعمرون بما قمنا به من الاستعداد أرادت الحكومة البريطانية أن تمسكنا بغتة وتستأصلنا فجأة . فلما علمنا بذلك ابتعدنا عن جهتها لكي نتم استعدادنا المكشوف . فأعلنت الحرب على قبيلة تساعدنا بالرجال وصادرت البعير التي حملت بضائعها الى بربرة . . فعند ذلك أعلنت الجهاد عليها وعلى جميع المستعمرين وعلى جميع القبائل التي تساعدهم في حربنا ودعوت جهارا جميع القبائل الصومالية الى الدفاع عن الوطن والدين وأرسلت الوفود والرسائل الى جميع أنحاء البلاد .

ولما ابتعدنا عن الحكومة الانجليزية لنتم استعدادنا ونسلم من مباغتتها ومفاجأتها غزت الحبشة علينا من هرر بموافقة بينها وبين الحكومة الانجليزية على أن تغزو علينا من كل جهة فنالت الحبشة من بعض القبائل الموالية لنا بعض أموال ودماء فخرجنا في أثرها فدارت بينها وبيننا معركة .

وفي يوم تلك المعركة نفسه أغارت قبائل صومالية على أموالنا وأهلنا الذين تركناهم في « دك » وتلك القبائل أرسلتها الحكومة الانجليزية علينا وأمدتها بالمال ولكننا انتصرنا في المعركتين معا .

ثم بعد قليل من المعركتين اللتين خضناهما بدون استعداد لهما قامت بعض القبائل بمؤامرات علينا دبرها (منيليك - ملك الحبشة) مع بعض زعماء تلك القبائل وكان غرضهم أن يقتلوا جميع رجالنا في يوم واحد .

حتى لا يفلت منهم شخص . فاجتمع من تلك القبائل خمسون ألف رجل
فى (كره دم) يقودهم الزعماء الذين دبروا المؤامرة .

وكان هدفهم أن تختلط بهم ونحسبهم أنهم قبائل موالية لنا ومعادية
للحبشة . وقالوا لنا اننا نريد أن نغزو الحبشة ونريد أن يقودنا رجل
منكم . . . ولكن لحسن الحظ قبل أن نقع فى الشرك استعجل بعضهم وقتل
منا رجلا يقال له الحاج عباس وهو يصلى صلاة العصر . فانكشفت المؤامرة
وافترضت مكيدتهم ثم قررنا أن نحذر القبائل كلها كما نحذر الدول
المستعمرة وقررنا أيضا أن نبتعد عن تلك القبائل التى قامت بتلك المؤامرة
الخبثية لكيلا نخوض حروبا مع تلك القبائل الجاهلة .

وحينما ابتعدنا عن تلك القبائل المذكورة علمنا فى الوقت نفسه أن
الحكومة الانجليزية ومعها قبائل صومالية غزتنا من جهة الشمال ، وأن
الحبشة ومعها قبائل صومالية كثيرة غزتنا من جهتي الجنوب والغرب .
فاتجهنا نحو المشرق لأننا لم نستكمل استعدادنا فعلمنا أيضا أن القبائل
الصومالية الموالية للحكومة الإيطالية غزتنا من جهة الشرق بإعاز واعانة
الحكومة الإيطالية .

علمنا أيضا أن تلك الغزوات سلسلة واحدة تتصل حلقاتها دبرت
لتطويقنا من جميع الجهات . فقررنا أن نتجه نحو القوات الانجليزية لأنها
المثيرة علينا جميع تلك الامم ، فحاربناها وانتصرنا عليها ولكن لم ينفك
الحصار عنا فيما بين (كلادوورطير) الجهات الاربع . . .

فاتجهنا مرة أخرى الى معسكرات الحكومة الانجليزية لأننا نعلم أننا
إذا انتصرنا عليها تخاف البقية فانتصرنا أيضا .

ولأجل ذلك اتجهنا الى دفاع العدو وأذنا به وقررنا أن نواصل الكفاح
المبرير الأليم وبدلنا لهم الضربة بضربتين واللاطمة بلطمت ، وقتلناهم بعزم
وشجاعة وسياسة وحكمة .

وبعد ما ذاقوا العذاب والقسوة منا سمونى مع سيدهم الكافر
الانجليزى (الشيخ المجنون) ولا أستبعد ذلك من الحكومة الانجليزية
لسببين . . .

١ - أنها تقلد فى ذلك الامم السابقة التى كانت تتهم المصلحين من
الأنبياء وغيرهم بهذه التهمة .

٢ - أنها تستبعد محاربة رجل واحد منا ومناواته للدول العظمى
وليس معه شعبه ولا معدات من الآلات والاموال وغيرها وهو منفرد بهذه
الفكرة الحماسية .

وقالوا للدراويش وهم رجالى : اننا علمنا ممن رأى بعينه أن الحكومة الانجليزية تتسلح بألة تحرق الارض وتحرق جميع بلاد الصومال وستغزو الدراويش هذه المرة بتلك الآلة .

فلما علمت هذه الأرجوفة سكنت فزع الامة وقلت لهم : ان تلك الآلة اذا فرضنا وجودها فهي لن تحرقنا وحدنا بل ستحرق معنا جميع الكفار الذين فى أرضنا ومن يساعدونهم ، وهذا ربح لنا وخسارة عليهم لاننا نموت شهداء فى وقت واحد والشهادة هى غرضنا الرئيسى . والكفار سيفارقون الدنيا وهى غرضهم الأول وسيدخلون النار المؤبدة عليهم . . . وأما اذا ظننتم أنها تحرق الأماكن الخاصة بنا ولا تحرق غيرها فهذا أمر لا يمكن تصوره لاننا نقدر أن نهرب من الأماكن المحترقة الى أماكن غير محترقة وقد قال تعالى فى شأن أمثالهم : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لفرغينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا »

وبعد أن يمضى فى توضيح صفات وخصائص المنافقين والخونة ويبرر بالدليل العملى اضطراره الى مقابلتهم يقول : «فاذا علمت ذلك فقد اتضحت أسباب الحروب التى وقعت بيننا وبين القبائل الصومالية ، كذلك اتضحت لك الأدلة الشرعية التى اعتمدنا عليها فى قتالهم ومحاربتهم واستباحنا لها دماءهم وأموالهم . ولولا ما قمنا به من محاربتهم ودفعهم عن أنفسنا واحتراسنا من مؤامراتهم الداخلية واستعجالنا لتحطيم شوكة المدبرين للانقلاب علينا واستكشاف الجواسيس المنتشرة فى جيوشنا : لو لم نفعل ذلك ما عاشت نهضتنا أكثر من شهر واحد . . . ولأسرتنا القبائل المذكورة بسلاسل المستعمرين ولتم شنقنا فى أوائل نهضتنا وقيامنا بالجهاد والدفاع على مشائق الكفار .

انى قد حاولت مرارا وأردت كثيراً أن تقوم القبائل بالجهاد والدفاع عن دينها ووطنها مستقلة ومنفصلة عن الدراويش من رجالى وتعهدت لكل قبيلة تفعل ذلك بالسلاح والمال . وكان غرضى من ذلك ألا يدخل فى خواطرهم أننا نريد السيطرة عليهم . فلم نر أية قبيلة تجيب وتقبل . . . اللهم الا قبيلة « بمال » ولكن القبائل الصومالية التى فى بلادهم والجيوش الايطالية بددت شملها وكسرت قوتهم وشوكتهم وقضت على نهضتهم فى مدة وجيزة .

والخلاصة أننا لا نرجو الانصاف فى الاخبار عنا والتحدث عن حروبنا مع قوم أراقوا دماءنا ونهبوا أموالنا وحاربونا سنين كثيرة وأذونا بأشعارهم وألسنتهم وفعلوا بنا كل ذلك لأجل مساعدة عدونا الكافر المستعمر ولأجل استجلاب رضائه وأمواله واستبعاد غضبه وسخطه .

وانصح لكل منصف يريد أن يعرف حق المعرفة عن أحوالنا وأهداننا
وأسباب حروبنا وعن المعارك التي انتصرنا فيها أو انتصر علينا وعن الأمور
التي أنكرناها على الشعب فمن أراد ذلك فأنصح أنه يأخذها من أشعارى
الصومالية التي نظمها لكى تكون تاريخاً عنى لشعب الصومالى من بعدى
وخبرهم عن غرضى الوحيد أو أن يأخذها من خواص إخوانى (الدرأويش)
الذين ناضلوا معى .. ولكنى أحذر كل منصف أن يأخذها من الرجال
الذين كنا نحاربهم فى الميدان أو باللسان سواء من المستعمرين أو من
القبائل التي كانت معهم ولا من الذين أخذوها منهم .

وأختتم جوابى بالسلام على من اتبع الهدى وجاهد الكفر والمنافقين
وكل من يساتدهم أو يعاونهم واللعنة على الكافرين وعلى الذين يبيعون
دينهم ووطنهم وشرفهم .
هذا والسلام .. »

ورسالة أخرى تقول :

وقى رسالة أخرى بعث بها الى أربعة من العلماء يأمرهم أن يقوموا
بارشاد الامة فى الجهاد والاتحاد وهم : الشيخ حسين بن آدم - والشيخ
عبد الله بن عروس - والشيخ الحاج يوسف بن عبد - والشيخ المعلم
ابراهيم - كتب بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله يقول فى مقدمة
الرسالة :

« ومراد هذه الرسالة أمران : أحدهما ابلاغ سلام الله عليكم وعلى من
حضر لديكم والثانى : أريد منكم وأطالب اليكم مؤكداً حيث أنكم من العلماء
الأعلام الذين هم الهداة أن تقوموا لاعلاء كلمة الدين الاسلامى ولتوحيد
صفوف أمتنا الصومالية لمقاومة الاعداء الذين يحقدون ببلادنا ويستعبدون
أمتنا وينهبون شرفنا وغزتنا ويحاولون أذلال ديننا الذى هو أشرف
الأديان .

وحذروا الامة عن الاشياء التي تجلب لهم الهلاك فى الدارين وتسبب
لهم الكفر والارتداد أعاذنا الله من الجميع ومن ذلك تكفيرهم لنا مع كوننا
مسلمين موحدين مجاهدين فى سبيل الله لاعلاء كلمة الله ولانقاذ بلادنا من
برائن الاعداء الكافرين ومخالب أعوانهم المنافقين المكذبين .

وبعد أن تحدث عن عقيدة الدراويش من رجاله وخلوها من الانحراف
والزيغ واستبسالهم وقوتهم فى الدفاع عن دينهم ووطنهم وإيمانهم الراسخ
بحقهم فى الحرية والنصر على الاعداء الطامعين أخذ يوجه نظر العلماء الى
ضرورة نصيح الامة فقال :

« ومع ذلك يكفروننا بلا موجب .. فيا علماء الاسلام .. حذروهم عن ذلك وحذروهم عن اتباع الكفرة والسكن معهم والتعظيم لهم ونسبة العزة والمتعة اليهم والتحاكم اليهم والمعاملة معهم ودعوة الرعوية ونصب البيارق وجلب البضائع الى بلدهم والتعمير به فان ذلك كله مما يجلب الويل والهلاك .. »

أما اتباع الكفرة فلا خفاء على أنها من المكفرات .. وأما السكن معهم فتحريمه ظاهر بالكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا .. »

وأما الاحاديث فمنها قول الرسول « أنا برىء من كل مسلم مقيم بين أظهر المشركين قالوا يا رسول الله ولم ؟ لا يراى الناران .. »

وأما التعظيم لهم فهو مما يجلب الكفر .. وقد أنكر العلماء ايمان من يعظم الكفرة لان الله أمر باهانتهم وقال فى حقهم «حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» ..

الفصل الخامس الصومال بعد المهدي

لم يكن اختفاء محمد بن عبد الله حسن من الميدان باستشهاده يعني انقراض حركة المقاومة والكفاح ضد الاستعمار . . فقد كانت السنوات التي عاشها قائدا وزعيما مدرسة تلقى فيها الصوماليون جميعا اساليب الفداء والاستبسال ، وحب الوطن وبغض مغتصبه ، وتوارث الابناء عن الآباء هذه السياسة التي أصبحت تقليدا يرمز للكفاح الوطني ، وهذا يدل على عمق الجذور التي غرسها مهدي الصومال في النفوس ، واصالة المبادئ التي نادى بها ، واستمر الكفاح متصلا منذ استشهاده في عام ١٩٢١ وحتى عام ١٩٦٠ وهي السنة التي حصل فيها الصومال على استقلاله وأصبح دولة ذات سيادة وانضم الى هيئة الامم المتحدة .

وفي خلال الاعوام . . شهد الصومال ألوانا من سياسة التحسك والسيطرة التي فرضها الاستعمار . . شهد الجبروت البريطاني والانحلال الفرنسي والبطش الحبشي والقسوة الايطالية . . وشهد زوال عهود وقيام أخرى . . وفي خلال هذه الفترة احتلت ايطاليا الحبشة ثم انهزمت ايطاليا في الحرب العظمى الثانية ودخلت بريطانيا مكانها في الصومال ، ثم وضع الصومال تحت الوصاية الدولية الى أن ظفر بحقه في الحرية والسيادة عام ١٩٦٠ .



وخلال هذه الفترة الطويلة التي أعقبت زوال الإدارة المصرية من الصومال ثم سيطرة الدولة الاستعمارية عليه . . وقيام مهدي الصومال بحركته التحررية الوطنية لاستخلاص حقوق بلاده ، ثم انتهاء هذه الحركة الى ما انتهت اليه ليستأنف الاستعمار تحكمه في البلاد حتى كان العهد الوطني وعلان الاستقلال . . نقول : انه طوال هذه الفترة عاش الشعب الصومالي عن عزلة سياسية وضيق اقتصادي ، انشغل في رعاية الصحة . . فقد رأى الاستعمار ضرورة القضاء على تقويمات عقائد الشعب التي

ازدهرت طوال سنوات عهد الادارة المصرية التي جعلت منه شعبا واعيا متفتحا .

وكان الحكم الفاشيستي من ناحية ، والفرنسي البريطاني الحبشي من ناحية أخرى يكونون طوقا فولاذيا يكاد يحنق الشعب الصومالي . ومع كل ملاقاة الشعب من صنوف الاضطهاد ووسائل ابعاده عن سبيل الحياة والمدنية الا أنه لم يستسلم لهذه القيود الثقيلة . بل مضى يتلمس الفرص لينتفض انتفاضات تحررية تعيد اليه ثقته لنفسه وايمانه بخلاصة من الاستعمار الأجنبي . وكان أهم هذه الانتفاضات تلك التي حدثت أثناء الحرب العظمى الماضية وفي عام ١٩٤١ بالذات .

* * *

أجمعت العناصر الوطنية في الصومال على ضرورة انتهاز فرصة اندحار ايطاليا في الحرب وحاجة بريطانيا الى تأييد الصومال وغيره من الدول . فتقدموا ببرنامج سياسي الى الادارة البريطانية التي كانت مشرفة على الصومال كله منذ عام ١٩٤٣ يحقق آمال الصوماليين في الحرية والاستقلال . وقد جاء في هذا البرنامج تصفية الاستعمار من كل أجزاء الصومال وتوحيدها في ظل علم واحد ودولة واحدة والغاء التعصب القبلي والطائفية الدينية وكل التقاليد الرجعية المناهضة لمضمون القومية والدولة . وأن يكون الصومال جمهورية ديمقراطية ودينه الرسمي هو الاسلام .

هذه هي السياسة الداخلية التي رسمتها الهيئات الوطنية الصومالية المنضوية تحت اواء حزب نادية شباب الصومال . . وهناك برنامج للسياسة الخارجية أقره الاعضاء ويتلخص في ايمان الحزب بميثاق الامم المتحدة ويرغب في توثيق عرى العلاقات مع كل الشعوب الحرة المحبة للسلام . كما يسعى الحزب نظرا لكون الصومال من العالم الاسلامي في توثيق روابطه بكل الدول الاسلامية الأخرى . كذلك أعلن الحزب عن برنامج اجتماعي والاقتصادي لرسم مستقبل الصومال .

وقد وقف حزب نادية شباب الصومال منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ندا عنيقا للاستعمار ومحاولات التسلل والمساومات الاستعمارية لتقييد حرية الصومال ، ومن ذلك رفضه التام لمشروع بيفن عام ١٩٤٦ الذي يقضى بمساعدة الصومال في الحصول على استقلاله في نظير انضمامه للكومنولث البريطاني . فقد جاء في البيان الذي ألقاه في مجلس العموم البريطاني في ٤ من يونيو من هذه السنة ما نصه : « ان الحكومة البريطانية ستساعد الصومال على تحقيق الامل الكبير وهو الاستقلال والوحدة في نطاق الكومنولث اذا رضى الشعب الصومالي بالوصاية البريطانية لمدة عشر سنوات »

كان رفض الشعب الصومالي لمشروع بيبس رفضا قاطعا لما فيه من انتقاص لسيادة الصومال وتقييد حريته في عهد الاستقلال المزعوم . . الامر الذى اثار الحكومة الانجليزية فقررت الانتقام منه في صورة أو في أخرى . فكان تأييدها لمشروع سفورزا الايطالى ، والذي عرف في مجال السياسة باسم مشروع «بيفن - سفورزا» الذى يقضى برجوع إيطاليا الى الصومال دون قيد أو شرط .

* * *

أما مقاصد التآمر الكبرى التى اضطلمت بريطانيا بها . . فكان هذا الذى حدث مع الحبشة فى هذه الآونة . . والذي اعتبرته الدوائر السياسية العالمية اثباتا على حقوق شعب الصومال ، وتعديا صارخا على سيادته التى انتهكها الانجليز مجاملة للحبشة ومحاولة رخيصة منهم لكسب ودها وصداقتها لأغراض المنفعة المتبادلة والمصالح المشتركة . فقد قدمت بريطانيا قسما كبيرا من أرض الصومال المجاورة للحدود الحبشية فى منطقة الأوجادين للحبشة ليكون جزءا من الوطن الحبشى بأهله ومدنه وقراه دون أدنى استشارة لهم . . وتصرفت فيهم كأنهم قطع لارأى له ، فخلقت بهذا العمل أزمة ستظل قائمة الى أن يعود هذا الجزء المقتطع الى الوطن الصومالى الكبير .

حدثت هذه المؤامرة الانجليزية الحبشية على الصومال فى الوقت الذى تضافرت فيه العناصر الاستعمارية صاحبة النفوذ فى هذه المنطقة على أن تكون إيطاليا هى التى تتولى من قبل الامم المتحدة شئون الوصاية على الصومال بصفتها الدولة السبابة الى احتلاله منذ عام ١٨٨٢ ، وصاحبة المشاريع الاحتكارية الكبرى فى مجال الاقتصاد .

* * *

ونجحت الدول الاستعمارية فيما هدفت اليه مؤقتا - وذلك حين قررت هيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٨ فى أثناء نظرها أمر تقرير مصير المستعمرات الايطالية وضع الصومال الايطالى تحت الوصاية الدولية وأن تكون إيطاليا هى الدولة التى تتولى تنفيذ موضوع الوصاية بأشراف مجلس استشارى للصومال يتبع هيئة الامم المتحدة تكون مهمته تقديم النصيحة للإدارة الايطالية وأعداد تقرير سنوى عن أعمالها ومدى احترامها وتنفيذها لاتفاقية الوصاية . وكان هذا المجلس يتكون من مندوبى دول ثلاث : هى مصر والفلبين وكولومبيا .

ورأت العناصر الوطنية أن تنتهز فرصة اعلان الوصاية الدولية على الصومال والتى تنص على اعداد وتهيئة الشعب الصومالى للاستقلال وحكم نفسه بنفسه فى مدى عشر سنوات تبدأ من يوم تنفيذ الاتفاقية وتنتهى عام

١٩٦٠ لتقوم بأكبر عمل فى تاريخ بلادها الحديث فدعمت صفوفها وظهرت أحزاب ببرامج سياسية تحريرية ترمى الى اعادة الوحدة للوطن الصومالى المقسم الى أقسام خمسة ٠٠ وعمل الجميع على تحقيق هذه السياسة .

وفى ١٢ من اكتوبر ١٩٥٤ ٠٠ نفذت الادارة الايطالية تحت اشراف هيئة الوصاية الدولية أول بند من بنود استقلال الصومال وتهيئة شعبه لتولى زمام أموره وذلك حين احتفل بانشاء العلم الصومالى ، ثم بدأ مشروع صوملة الوظائف ، وكانت كل الوظائف تقريبا حتى ذلك التاريخ فى الجيش والبوليس ، فى الادارة والمصالح ، فى التعليم وشتى المرافق ، فى أيدي الأجانب الذين حرموا أصحاب البلاد هذا الحق طوال فترة الحكم الاستعمارى التى بدأت منذ خروج الادارة المصرية من هذه البلاد . وجدير بالذكر أن الادارة المصرية كانت أول من نفذ مسألة تولى الصوماليين حكم أنفسهم بأنفسهم ٠٠ فقد عينت الحكام وكبار الضباط والموظفين وكل ما من شأنه تسخير دفة الامور فى البلاد ٠٠ فخلقت فيهم روح الثقة بأنفسهم ٠٠ وكانت نتيجة هذا العمل النجاح مائة فى المائة فى توطيد دعائم الحكم فى الصومال .

وكانت الحركة الانتقالية الكبرى بعد انشاء العلم الصومالى وصوملة الوظائف اجراء انتخابات لأول مرة فى الصومال لتكوين أول مجلس تشريعى فى البلاد ٠٠ يقوم فيه ممثلو الشعب باختيار الحكومة الجديدة ، وفى مارس ١٩٥٦ أجريت الانتخابات العامة التى أسفرت عن حصول حزب وحدة الشباب على غالبية المقاعد حين ظفر بثلاثة وأربعين من مجموعها البالغ سبعة مائة مقعدا ٠٠ واقتسم الباقى الاحزاب الاخرى والجاليات التى دخلت معركة الانتخاب ٠٠ وقد شهد المراقبون الاجانب للشعب الصومالى بالوعى والادراك وبالحكمة التى أديرت بها المعركة الانتخابية حين تلاشت المهانرات وانعدمت الحزبية العمياء ٠٠ وظهرت مصلحة الوطن ومستقبل الصومال فوق كل اعتبار ٠٠ ورأى كل صومالى فى هذه الانتخابات فرصة للخلاص من المستعمر الذى اغتصب بلاده سنوات عدة ٠٠ سلب ثرواتها واستبد بأهلها وتاجر فى أرزاقها واقتسم أنحائها . ومن ثم دخلها كل منهم بايمان وعزيمة ألا يعود هذا المستعمر فى أية صورة .

وانتهت الانتخابات لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تنفيذ اتفاقية الوصاية وهى تشكيل أول وزارة فى تاريخ الصومال الحديث من حزب الأغلبية الذى فاز فى الانتخابات وتحقيقا لهذا الأمر كلف الحاكم العام

الايطالى بوصفه المسئول عن تنفيذ اتفاقية الوصاية حزب وحدة الشباب بتأليف الوزارة ، واجتمع الحزب للتشاور برئاسة السيد آدم عبد الله عثمان رئيسه لاختيار المرشح لرياسة الوزارة . . تمهيدا لاختيار أعضائها واستقر الرأى على أن يتولى الرياسة شاب صومالى متحمس . . من ذوى العصبية الشعبية هو السيد عبدالله عيسى بعد أن اعتذر السيد آدم عبدالله عثمان مكتفيا برئاسة المجلس التشريعى . وكانت الوزارة مكونة من خمسة وزراء الى جانب رئيسها . . ولم يكن هناك وزيران للدفاع والخارجية حيث ظلت مقاليد الامور فيهما فى يد الادارة الايطالية بمقتضى الاتفاقية .



وكان أول خطر يواجه الصومال وهو على أبواب الاستقلال هو الخطر الأمريكى الذى بدأ يتسلل الى هذه البلاد طمعا فى مركزها الاستراتيجى كساحل يطل على المحيط الهندى وعلى خليج عدن . . وتحتوى أرضه على الذهب الأسود . . وقد انتشرت بالفعل شركات البترول الأمريكية بشكل كبير للبحث عن هذا المعدن . . ولم يكن هذا هو مظهر التسلل الأمريكى فحسب . . بل كانت هناك مكاتب الاستعلامات التى انتشرت فى كل مكان للقيام بالدعاية للأمريكان وشراء النفوس بالمغريات . . كذلك عملت البعثات التبشيرية الأمريكية على توسيع دائرة نشاطها حتى شملت القرى والأطراف البعيدة وذلك لتحارب دين الصومال ولغته . . وكانت مقاومة الوطنيين للمشاريع الأمريكية أمرا يتمشى مع النهج الذى رسموه وهو تحطيم كل محاولة لاستعمار الصومال .



ثم كان هناك الخطر الايطالى ممثلا فى استعمار اقتصادى حتى يظل الصومال سوقا لإنتاجه وموردا من موارده الأساسية . . وقد حاولت الحكومة الايطالية أن تجعل النقد الصومالى مرتبطا بالنقد الايطالى حتى يكون الاستقلال سهلا وبصورة منتظمة . . ولما كانت الشركات الايطالية برغم اضمحلال نفوذ ايطاليا فى الصومال بعد هزيمتها فى الحرب العظمى الثانية ظلت تسيطر بشكل ملحوظ على الاقتصاد الصومالى . . فقد رأت الحكومة الايطالية تقوية نفوذ هؤلاء وبقاء تحكمهم فى ظل الصومال الموضوع تحت الوصاية الدولية . . فكلفت بعض رجال القانون الايطاليين بوضع دستور للصومال يدعم هذا المركز ويكون فيه الحفاظ على تلك المصالح وذلك لمدامة النفوذ الايطالى على السوق الصومالية .

وقد كان هذا الخطر الكبير الذى يكمن وراء السياسة الايطالية أمرا لم يفت على الشعب الصومالى المتطلع الى تخليص نفسه من قيود الاستعمار المتيقظ الى المناورات الاستعمارية وأساليب الصيد فى الماء العكر ، فهب

يقاوم هذه الاتجاهات ، ويفضح هذه الاساليب دون هوادة ايمانا منه بأن هذا العمل فيه خلاص من هذه القيود وتلك المناورات .

ثم كانت محاولات فرنسا للاحتفاظ بنفوذها في الصومال . . وخاصة أنها خرجت من الحرب ضمن المجموعة المنتصرة ، وبرغم هذا الشعور فإنها كانت تحس في قرارة نفسها بالهزال والانكسار كدولة من الدرجة الاولى . ورأت فرنسا أن علاجها هو في الاحتفاظ بمستعمراتها في الخارج حتى تضفى عليها قوة ومنعة . . وتحارب بشدة كل اتجاه لانسلاخها عنها . وحينما رأت الحركة الاتحادية التحررية تجتاح الصومال . . وتغزو ما كان يعرف بالصومال الفرنسي خشيت على نفوذها من الضياع فأعلنت أنها ضد أية حركة سياسية تسعى الى تغيير الوضع القائم في البلاد .

وازداد فزع فرنسا حينما رأت أن الحركة الوطنية الاتحادية في الصومال تنادى بعروبتها وبالاسلام ديناً له . . وبالتضامن مع الدول الاسلامية والعربية مبدأ هاماً في السياسة الخارجية ، وهنا رأت أن تضع للعرب والاسلام وكراً مسموماً في الصومال . . فأبرمت اتفاقاً مع اسرائيل يقضي بمنحها عدة امتيازات في جيوتي كانشاء المصانع وادارة الميناء وغير ذلك من الامور التي تكفل تعطيل الحركة الوطنية . . وواصلت فرنسا رسالة التحدي والعنصرية في مناصرة اسرائيل على عرب الصومال المسلمين حتى أصبح هذا الموضوع شغل أبناء الصومال الشاغل .

أما الحبشة فقد كان يثيرها أمر هذه الدولة العربية الاسلامية المزمع قيامها على حدودها باسم دولة الصومال . . ومن ثم عملت أقصى ما يمكن لمنع هذا الحدث الذي يقض مضجعها ويعيد الى ذاكرتها قصة انتصار امارة الصومال العربية المسلمة على الحبشة أيام السلطان أحمد جرائي في مطلع القرن السادس عشر وحاربت الحبشة هذا المشروع بكل قوة وتأمرت في ذلك مع بريطانيا فسمحت لها باقامة قواعد عسكرية في اقليم الأوجادين ، ومع أمريكا ، فوافقت على منحها قواعد للطيران والصواريخ والحرب الذرية ، ومع فرنسا وايطاليا واسرائيل وكل مامن شأنه تعكير صفو الدولة الجديدة ولم تكتف الحبشة بجزء الصومال التي ابتلعتته عنوة ، بل رأت ألا يستقر الوضع في كل الصومال ولا تقوم للدولة الجديدة قائمة .

واختفت الحبشة وراء كل مشروع استعماري في الصومال . . فكان اقناعها لانجلترا بتنفيذ المشروع السري المبرم بينهما في عام ١٨٩٧ والذي بمقتضاه سُلّخت بريطانيا جزءاً هاماً من الوطن الصومالي يعتبر من أخصب

بفاعه وأميزها والذي اعتبرته إيطاليا أيام احتلالها للصومال عروس افريقيا ويعرف بمنطقة الأوجادين . . وأعطته لقمة سائفة للحبشة . . وقد وقع هذا الاعتداء السافر على حقوق الصوماليين وسيادتهم عام ١٩٤٨ والامم المتحدة فى سبيل تدبير وضع المستعمرات الإيطالية السابقة . . بما فيها هذا الجزء .

ثم كانت المؤامرة الحبشية الأخرى تساندها الحراب الأمريكية . . والقواعد العسكرية التى بدأت تأخذ طريقها الى أرض الحبشة ذاتها نظير اعتراف أمريكا بحقوق الحبشة فى الصومال . . فقد كانت أمريكا وراء كل مشروع حبشى يرمى الى عرقلة استقلال الصومال وتوحيد أنحائه . . وكانت الحبشة تطمع فى الاستيلاء على الصومال كله لاعلى منطقة الأوجادين فحسب وذلك نظير مساعدتها الحلفاء ضد المحور فى الحرب العظمى . . ثم سماحها بعد الحرب لأمريكا بإقامة قواعد عسكرية فى أراضيها . . وتعددت تصريحات المسئولين الأحباش وعلى رأسهم الامبراطور تفصح عن معارضتهم لمشروع وحدة الصومال ، ويلوحون بضرورة ابتلاع الحبشة للصومال كله .



ونأتى أخيرا لأهم الدول الاستعمارية وأكثرها نفوذا فى المنطقة وهى بريطانيا . فقد رأت أن استقلال الصومال أمر خطير يشكل خطرا جسيما على مستعمراتها فى افريقيا التى سوف تتطلع بلا شك الى الصومال وما حققه من نصر سياسى تنتقل عدواه الى هذه المستعمرات فى أقصر وقت . كما أن استقلال الصومال ووحدته سيكون الشغل الشاغل للعناصر الوطنية فى المستعمرات البريطانية . . فتنتطلق من كينيا وأوغنده وتنجانيقا والدول التى تلاصق الصومال وغيرها من الدول فى سائر أنحاء القارة الافريقية نداءات التحرر والتخلص من قيود الاستعمار ، وعندئذ تضطر بريطانيا تحت وطأة المد الثورى فى هذه البلاد الى أن تستجيب لهذه النداءات لتخلص نفسها من حرج الموقف وصلابة الاصرار على غير حق . . هذه الاستجابة تعنى نهايتها فى منطقة شرقى افريقيا وضياع هذا الجزء الهام من الامبراطورية والذي سيكون مؤذنا بضياع مناطق أخرى بأكملها ، وقد صبح ما توقعه سياسة بريطانيا . . فكان استقلال الصومال تمهيدا لاستقلال تنجانيقا وأوغندا ثم كينيا فى منطقة الشرق . . وأغلب المستعمرات فى منطقتى الغرب والوسط .

ولما رأت بريطانيا أن لا محالة من اعترافها باستقلال الصومال قررت أن تعمل عملا يحفظ لها هيبتها فرأت أن تمسك الحبل فى منتصفه . . فتوافق على استقلال الصومال شكليا . . وتضمه الى الكومنولث أو تربطه بعجلة

الامبراطورية في أية صورة من الصور .. حتى يكمل السلسلة التي تمتد من جنوب عدن الى آخر تنجانيقا وتتصل غربا بكينيا وأوغندا لتخلق كتلة هائلة تتبع بريطانيا في شرقى افريقيا تعوضها عن قاعدة السويس وتكون مركزا جديدا للنفوذ الانجليزى .

هذا موجز للمشروعات الاستعمارية .. مشروعات أمريكية وفرنسية وحبشية وبريطانية كلها تهدف الى السيطرة على الصومال والاستئثار بخيراته والتحكم فى شعبه وإبادة عروبتة وفصل كل كفاح له مع المجموعة الإسلامية ، وجعله ممزقا موزعا مقطع الأوصال .

ولم يكن الشعب الصومالى العربى ليرضى بهذا الوضع الكريه ، فبدأ يحارب مشروعات الاستعمار بعنف وقوة ، ويصر فى عزيمة صارمة صادقة على نيل استقلاله كاملا بعد انتهاء فترة الوصاية التى قدرتها الامم المتحدة وسقط فى سبيل تحرير الصومال وإزاحة كابوس الاستعمار شهداء أبرار ومجاهدون شرفاء .

وفى مجال الدفاع عن استقلال الصومال .. وكسب حقوقه السياسية والاقتصادية والعمل على تطبيق قرار الوصاية تطبيقا سليما لاشوائب فيه تعوقه عن الظفر بالحرية الكاملة والاستقلال الحقيقى .. سقط شهيد عزيز من أبناء مصر وهو فى ميدان الدفاع عن المقومات الأساسية لشعب الصومال .. فقد اغتالت يد الاستعمار الآثمة الشهيد البطل كمال الدين صلاح المندوب المصرى فى لجنة الوصاية الدولية ، وذلك حينما لمع اسمه ليطعى على الآخرين .. وليطالب للصوماليين بمزيد من الحقوق التى سلبها الاستعمار منهم فى يوم ما ، وليكون هذا الشهيد مشاركة من الجمهورية العربية المتحدة فى الفداء والاستبسال والاستشهاد مع اخوان لها من أبناء الصومال .

وهكذا يعيد التاريخ نفسه ، فقد سبق أن رأى الاستعمار أنه لا سبيل الى احتلال الصومال والسيطرة عليه الا بزوال الادارة المصرية عنه ، فانتهاز ظروف الضعف السياسى التى كانت تمر بها مصر بسبب الاحتلال البريطانى لارضئها ليرغم الحكومة المصرية المؤتمرة بأمره على اجلاء قواتها عن الصومال ولما تم ذلك وكان فى عام ١٨٨٤ انقض هو على الفريسة ليقطع أجزاءها ويوزعها فيما بينه بالاتفاق والتراضى .

وفى عام ١٩٥٧ والاستعمار يريد أن يقرر مصيره فى بلاد الصومال على أساس مواصلة فرض سيطرته عليه رأى أنه لا سبيل الى ذلك العمل الا بزوال مصر من الميدان .. وكانت مصر هذه المرة هى متدوبها كمال الدين

صلاح فى لجنة الوصاية الدولية فحاربها الاستعمار فى شخصه .. ودبر أمر التخلص منه على هذه الصورة البشعة لانه رأى فيه معول الهدم لسياسة ومشاريع المستقبل .

مضى شعب الصومال فى ظل حكومة الوطنية فى السير قدما نحو عالم النور .. وأخذ يتخطى العقبات التى رضعها للاستعمار فى سبيل استقلاله الواحدة تلو الأخرى .. كانت لجنة الوصاية الدراية تشرف أولا بأول على تنفيذ خطوات الاتفاقية التى وضعتها الأمم المتحدة لتقرير مستقبل الصومال حتى أوشكت أن تنتهى عشر السنوات التى حددتها كنهاية للوصاية الإيطالية عليه .

وكان عام ١٩٦٠ من أعوام الصومال المجيدة ففى هذه السنة أعان استقلال هذا الجزء من الصومال الموضوع تحت الوصاية الدولية وارتفع علم الصومال القطر الأفريقى العربى على سارية الأمم المتحدة بعد أن أصبح عضوا عاملاً بها ، يعمل فى بناء هذا الصرح الدولى على أساس اقرار السلام والمحبة بين شعوب العالم .. فقد كان قرار الصومال المستقل فى سياسته الخارجية انتهاج سياسة الحياد الإيجابى ونبذ الأحلاف العسكرية والتضامن مع بقية الشعوب الآسيوية والأفريقية .

ولن يمضى وقت طويل حتى نرى الصومال كله وقد اتحد فى الصومال الكبير الذى مزقه المستعمر فيما مضى .. لن نرى هذه التقسيمات والانتزاعات التى أريد بها تفتيت وحدة شعب الصومال والقضاء على كيانه .. وسنرى العملاق الأفريقى الذى احتضن العروبة والإسلام فى هذا الجزء من هذا العالم منذ مئات السنين ليحافظ على دينها وتراثها وامجادها يقوم بواجبه من جديد فى هذا المجال .

تم الكتاب

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم الكتاب	٣
مقدمة	٧
الفصل الأول	
مهدي الصومال في أرض العروبة	١١
الفصل الثاني	
وسط دوامة الاستعمار	٢١
الفصل الثالث	
في المعركة ضد الاستعمار	٣٩
الفصل الرابع	
فلسفته في الكفاح	٥٣
الفصل الخامس	
الصومال بعد المهدي	٦٣



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتيق - مروض الفرع

٤١٠١٤ / ٤٠٧٥٣ } للمفون
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }

Bibliotheca Alexandrina



0224826